مسرور ومقرور

للكاتب أحمد بهجت(*)

دراسة نقدية وموازنة بينها وبين كتاب التوهم للمحاسبى

اعداد

د/ داود اطفى حافظ

مدرس الأدب والنقد فى

كلية اللغة العربية بأسيوط

مقدمة

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله والصلاة والسلام على سيدنا وحبيبنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن والاه ..

(*) الأستاذ أحمد بهجت : الكاتب بجريدة الأهرام ، صاحب باب صندوق الدنيا . وقد أرسلت اليه وكلمته عبر الهاتف ، وطلبت اليه أن يرسل الى ترجمة وسيرة ذاتية خاصة بسيادته لأثبتها هنا فى صدر هذا البحث ، ولكنه حتى كتابة هذه السطور لم يرسل الى ما طلبت منه وما وعد به .

وبعـــــد ....

فهذه قراءة فى فكر كاتب مسلم من خلال قصة رجلين « ظـالم ومظلوم ، قاتل ومقتول » رمز الخير والشر ، فى الدنيـا والآخـرة صاغها صاحبها الكاتب/ أحمد بهجت فى شـكل فنى سماه (مسرور ومقرور — لا رواية تبدأ أحداثها بعـد الموت) قـدم لها باعتراف بأنها ليست روايـة ، وعلل لذلك بأن الرواية تبـدأ بالحيـاة وتنتهى بالموت ، وأطلق عليها لا رواية ، لأنهـا — فى نظره — تبدأ بالموت — أى أنها تبدأ من النقطة التى تنتهى عندها الرواية ، وتمتد بأحداثها بعد البعث حتى أبواب الجنـة والنـار .

وهـذا يوهمنا بأنها قصة خيالية تقوم على التوهم والتداعى ، ولكنـه يفاجئنا بقوله : « ثم انهـا حقيقة ، ليست تخيلا ولا ابداعا كالأعمال الفنيـة » . فكيف يقول ذلك ؟ وما مقصوده ؟ خاصة وأنـه تأثر بكتاب التوهم للمحاسبى ، فهو مقلد للتوهم ، فهل تقليـد التوهم يصير حقيقة ؟ ولكن كيف ؟ هـذا ما سوف نراه ونرصده بعـد قراءة هـذا العمل ، فهى كما قال : « ان أحداث القصة حقيقية وان هـذه الأحداث لم تقع بعـد ، ولكنها وقعت بالتأكيد ، أو سـتقع بالتأكيد وهـذا كله محير جـدا .. رغم أنه حقيقة » .

أى أنها ممكنة الحدوث ، وهـذا ما يرتفع بهـا قليلا عن الوهم : ولكن الأحداث التى تنشأ فى الرواية المبتدعة ممكنة الحدوث أيضـا ، ولا يمنع أن تكون حدثت كلها أو جلها ولكن بترتيب مغـاير لمـا ورد فى الرواية وحتى الأحداث التى هى من ابتكار وخيال الكاتب اشترطوا أن تكون قادرة على التحقق وأنها فى تداعيها وتسلسلها وتولد بعضها من بعض فى صـورة عفوية تجعل العقل يصدق حدوثها ، وان لم تكن كذلك ، فالأحداث فى الرواية حقيقة ولا حقيقة .

والحس الروائى عنـــد المبدع يجعلها مقبولة على أنها واقع ، فالى ماذا يهدف كاتبنا ؟

هـــذا ما سوف يتضـــح لنـــا بعـــد عرضـــنا لأحداث هـــــذه « اللارواية » كما ســـماها صاحبها كما ســـوف نناقشـــه فيما ذكره بخصوص هـــذا القالب الفنى (الجـــديد) فيما بعـــد ، كما سنناقشه فى بعض فنيات العمل الفنى ، ان جاز لنا أن نطلق على هـــذا العمل الذى بين أيدينا « فنـــا » ، والمكان والزمان اللذين تدور فيهما أحداث هـــذا العمل ، وأبطاله من حيث الوجود والعدم .... وأشياء أخرى ستتضح فى حينها ... فلن نســـبق الأحـــداث .. والآن الى عرض الأحـــداث .

أولا : مسرور ومقرور — عرض ودراسة ونقد

الأحداث :

تبدأ الأحداث حيث نرى « مقرورا » فى كوخه الفقير لا يجد ما يتلفح به الا فروة الخروف ، والريح تدهمه بعنف وقسوة وتقتحم عليه الكوخ بعد أن تزيح الحجر الذى يسند به الباب فى غير هوادة ، ويلطم جسمه وعظامه ويغالب الريح ، وبعد جهد يتمكن من وضع قطعة الحجر خلف الباب الذى يحميه من الرياح الهوج ، فالباب وجلد الخروف ولا سواهما يشكلان حصنه الذى يختبىء فيه .

أما « مسرور » فهو فى قصره المحصن بالأحجار الضخمة العاتية ، وبفراء الثعلب الثمين الذى يشع بالدفء ، ومن آن لآخر يشرب النبيذ الذى يجعل الدفء يسرى فى كل أوصاله ويأكل لحم الطواويس ، ويفاخر بثرائه الذى يزيد مائة جنيه من الذهب كل ثانية ، وكان مسرور يعيش حياة التأمل ومكاشفة النفس فى مونولوج داخلى يدور فى أعماقه دون أن يطلع عليه أحد ، كان ينظر الى النبيذ ويرى أنه خطيئة ، وأى خطيئة محمولة على سيقان من الذهب ستجد من يبررها بل ومن يحيلها الى مكرمة وحسنة ، لذلك أحس مسرور بالكبرياء العميق ، ولم يرجع احساسه بالكبرياء الى ثرائه وانما الى عقله الذى دبر الثروة ونماها ، وأنه أصبح بهذا الثراء ، لأنه صاحب علم وتدبير ، مما يذكرنا بقارون الذى قال « انما أوتيته على علم عندى »(١) .

والذى ذكرنا به الكاتب صراحة حين قال : « أما مسرور فكان أغنى رجل فى المدينة ... وأقوى رجل فى المملكة .. ولم يكن غناه

---

(١) بعض آية من سورة القصص رقم ٧٨ .

يشبه غنى قارون .. كان أقل منه بمقدار مفتاح أو مفتاحين .. كانت كنوز قارون توضع فى صناديق وغلف لها مفاتيح وكانت مفاتيح كنوز قارون لا يستطيع حملها الا عصبة من الرجال .. سبعة رجال مثلا أو ثمانية .. كانت مفاتيح كنوز مسرور يحملها ستة رجال فقط »(٢) .

فكنوز مسرور كانت أقل من كنوز قارون ـ فهل يا ترى ستكون له النهاية نفسها ـ ربما ـ وعلى أية حال فقد كانت لمسرور فلسفة رضى بها عن نفسه ، واطمأن بل وركن الى الشح بسببها ، فهو يرى أن الفقير أحد اثنين ، اما رجل لا يملك مالا ، وهذا غبى ليس لديه ذكاء يمكنه من جمع المال ، ورجل آخر غنى مثله ، أرباحه تستعصى على العد والحساب ، وهذا يستحق المواساة ، ومادام لا يجدها عند أحد ، فلا يوجد على الأرض من يستحق منه الاشفاق أو بذل العطاء ولو بقرش فتراكم القروش يكون ثروة ، وخروج القرش من عنده يفتح ثغرة تتسرب منها بقية القروش ومن ثم الثروة ، وعلى هذا ينبغى أن يوضع كل قرش فى مكانه الصحيح ، ولعل ذلك كان تبريرا للملايين الثمانية التى اشترى بها سما ، ووضعه فى شراب المالك ، فمات ، وجاء بعده ملك أصبح الغوبة فى يد مسرور ، ثم دار حوار بين مسرور وضيوفه الذين كان منهم قاضى القضاة ، وكان الحوار يدور حول « مقرور » الفقير الذى يعيش فى الكوخ ، والذى قال : ان الأموات سيبعثون بعد موتهم ، وتدخل مسرور ينفى ذلك ، ويتهم مقرورا بالجنون ، وأنه لم يتلق هذا الكلام

---

(٢) أحمد بهجت : مسرور ومقرور ص ٩ المختار الاسلامى للطبع والنشر سنة ١٩٨٤م .

عن نبى قط ، ولما نطق القاضى بكلمات يحتمل منها أنه يؤيد مقرورا فيما قال ، ابتأس مسرور وغضب وهدد القاضى ، الذى جعله الخوف يمسك عن الطعام ، ويبادر باعلان التوبة قائلا : « كنت أريد أن أقول : من يدرى لعله كاذب ... هو رجل مجنون بالقطع .. من يدرى .. لعله محموم أو مريض »(٣) .

عندئذ رضى مسرور واستراح وتوجه الى كبير البصاصين يحرضه على مقرور الذى يؤمن بفكرة البعث وقال له : راقبه ، فأعلن كبير البصاصين أنه دائم المراقبة له من خلال باب كوخه المفتوح أبدا ، فلم يلحظ أنه اتصل بأحد ولا زاره أحد ، ولكنه عجز عن مراقبة فكره ، فلا يعرف كيف يفكر ، ولا كيف آمن بوجود البعث والحياة بعد الموت ، فقال مسرور ساخرا : متى تتحركون ؟ أتتحركون بعد أن يتحرك هو ، بمعنى أن حركتكم تصبح تابعة لحركته ؟ فيتبارى الجميع فى اصدار حكم الموت على مقرور ، فمنهم من اقترح الحكم عليه بالاعدام حرقا ، وتبادلوا الآراء الى أن اقترح عليهم مسرور أن يحرق كوخه ، ويترك الباب مفتوحا ، ليكون موته بفعل الريح الذى أسقط المشعل فأحرق الكوخ ، فيكون موته رخيصا بخلاف ما اذا حكم عليه بالاعدام ، فهذا يجعله شهيدا وبطلا ، وهلل الجميع بهذا الاقتراح ، وعدوه عدلا جاء بسرعة البرق على غير العادة .

ونعود الى مقرور الذى فتح الريح باب كوخه ، فذهب ليغلقه فوجد كلبا جائعا ، ولما بحث له عن طعام لم يجد فى كوخه سوى اناء به بقايا لبن ، فوضعه أمام الكلب الذى انكب عليه يلعقه ثم اتجه الى الصلاة بعد أن غسل وجهه وكفيه وقدميه ، وأخذ

---

(٣) أحمد بهجت ـ مسرور ومقرور ص ١٦ .

يدعو ربه كى يغفر له ما ارتكبه من آثام حين كان قاطع طريق ، ولكنه تاب على يد نبى لقيـــه فى المشرق وأخـذ يبكى وكان الكلب يرقب صلاته وبكاءه ثم شم رائحة ريحانة لها عبق يختلف عن عبق ريحان الدنيا وظن أنه ليس وحـده فى الكوخ ، ولكنه خشى الالتفات لأنه يصلى ، وجاءه كبير العسس ومعه كوكبة من الجنـــد ، والكل وقف يرقب مقرورا فى صلاته وبكائه ، تحـاور كبـير العسس مع كبـير البصاصين فى أمر قتله ، فما أسهل هـذا وهو ساجد ، وقـد ضبطاه متلبسا بعبـادة آلهة غـير آلهتهم ولكن رئيس العسس يرفض لأن الأوامر الأخيرة تطلب القبض عليـه وسـوقه الى السيد الأعظم ، ولمـا مثل مقرور بين يدى مسرور أمر باخلاء القاعة الا من الوزيـر وقاضى القضاة والجلاد ، ودخل مقرور يرتدى ثوبا قـد اهترأ فى كثير من مواضعه حتى ظهر لحمه من تحته ، وكان حافيا قـد اغبرت قدماه من تراب الطريق ، وكان وجهه شاحبا ومطمئنا فى نفس الوقت وكانت عيناه الصافيتان تعكسان فى أعماقهما دهشة بالغـة ، وأخـذ يتأمل فى جدران المكان المصنوعة من خشب الصندل فزادت دهشته وطلب منـه مسرور أن يعترف بجريمته ، فظن أنه يريد أن يبوح لـه بمـا اقترفه من اثم قـديم فقال له : كنت قاطع طريق ، وشـارب خمر ، وزير نساء ، فلم يعر مسرور ذلك التفاتا ، لأن هـذه فى نظره ليست جرائم ، وانما طلب منه أن يبوح بجريمته الأخيرة ، فقال : هذا كل ما عندى يا مولاى ، فقال : جريمتك الآن ...

فقال مقرور بعـد أن ضربه الجلاد بالسوط ، جريمتى الآن أننى تبت الى الله ولا أدرى ان كان قـد قبل توبتى أم لا ، وسوف أعرف ذلك عنـد لقائه بعـد أن أبعث من الموت كما قال لى النبى الذى لقيته فى المشرق ، فهتف القاضى دون ابطاء أو تفكير ، المتهم برىء ، ما قاله النبى صحيح ، فغضب مسرور وقال : لقـد جن القاضى ، احرقوهما

معـــا ، ثم تراجع وقال : انتظروا ، وطلب منهم أن يحملوا مقرورا الى السجن وعينوا عليه حارسا ، وأخذ مقرور يسائل الحارس : أحقـــا سيحرقوننى ، فرد الحارس بأنه مكلف بحراسته فقط ، وليس مأمورا أن يرد عليـــه ، وتمنى مقرور أن يقتل ، لأن هـذا دليل رضـــاء الله عنـــه وقبول توبته ، حتى رأى فى النوم أنه مع امرأة تشبه زوجتـــه التى هجرها قديما ، وأنه فى مكان ملئ بالخضرة والزهور ، وأرضه زعفران ، وأرته المرأة قصرا أفخر من قصر السيد الأعظم ، ثم قالت له : متى تأتى الينا واختفت المرأة وهب من نومه ، وفسرت الرؤيا بأنه سيموت اليوم ، أما الغاطس الذى تجرأ واعترف بالحقيقة فقـــد حكموا عليـــه أن يشرب كأسا فى مجلسهم وحملوه الى بيتـــه ، ومات هنـــاك وقـــدم السيد الأعظم العزاء لأهله وعين خلفا له .

أما مسرور فبعد أن فرغ من عشائه وشرابه طلب من احـــدى جواريه أن تلحق به فى مخـــدعه ، أحس بألم رهيب يسرى فى جسده كله ، وسقطت زجاجة الخمر من بين يديه وهو على عتبات الحجرة ، وهرع اليـــه الجميع وطلبوا الطبيب الذى جاء ليعلن أن السيد الأعظم فى غيبوبة ، وأن العاقبة سيئة ، ثم ظهر لمسرور شخص لا يكاد يتبين ملامحه ، ودار بينهما حوار لم يسمعه سواهما ، وقـــدم له كأســـا وطلب منه أن يشربه ، ولمـــا استفسر عنـــه ، أخبره بأنه كأس الموت ، فأخذ يتوسل اليـــه أن يمهله شهرا أو يوما فى مقـــابل ثروته كلها ، ولكن لا مفر فقـــد نفـــذ حكم الله فيـــه ، وخرجت روحه مثلما يسحب المـــرء شجرة من الشوك انغرست فى كومة من الصوف وملك الموت يضرب وجهه ، وفى هـــذه اللحظة كان الحرس قـــد ربطوا مقرورا فى عمود وأشعلوا النار لحرقه ، ولكن شخصا جاءه ، وقاله : لا تخف ، فلن تحرقك النار ولمـــا استفسر منـــه بعـــد أن أعلمه أنه يتمنى الحرق

ليفوز برضوان الله ، قال له الملك : انك ستموت قبل أن تصل النار اليك ، وسقط مقرور ميتا ، فلما رأى الحرس ذلك قال أحدهم : لقد مات المحكوم عليه يا سيدى هل نحرقه ؟ قال آمر السجن : اسكب عليه قليلا من الماء ثم احرقه ، وبعدها ادفنه فى مقبرة السجن .

وفى نفس اللحظة وفى حجرة مسرور كان الوزير وكبير البصاصين ورئيس العسس يقررون كتمان خبر وفاة السيد : وترك مقبرته الرخامية خاوية حتى لا يتبين أحد وفاته ، وفى سرية تامة وضع جثمان السيد فى مقبرة السجن مع مقرور ، وأعلن الوزير بقاء الحكم باسم السيد الأعظم .

وفى القبر يرتد الى كل من مسرور ومقرور احساس جديد وغريب ، أما مسرور فكان مندهشا مما يرى ، مكذبا لما يسمع ، فقد جاءه ملكان يسألانه عن ربه وعن دينه وعن نبيه وهو لا يعرف كيف يجيب ، فالتزم الصمت حتى لا يثير المحققين وارتفع عذاب القبر ليهبط على أم رأسه . وأما مقرور فقد أيقظه الملكان وكان قد تحول الى رماد من حرق النار ولكنه عاد بشرا سويا بأمر الله ، وسألاه نفس الأسئلة التى سألاها لمسرور لكنه أجاب عنها اجابة المؤمن فأرياه قصره فى الجنة ، ثم عاد رمادا كما كان الى أن يحين موعد الحساب لينال ثوابه الأبدى .

وكان فناء العالم ، فنفخ فى الصور — كما أخبرنا القرآن الكريم ، ففنى كل كائن حى وجد فى الكون ، واختل نظام الكون الذى كان يسير عليه ، ثم نفخ فيه أخرى فهب الخلق جميعا من رقادهم وعادوا من فنائهم ، بعد أن تحولوا الى تراب عادوا الى الحياة من جديد لم ينقص منهم عضو ، والتقى مقرور بمسرور ، وحاول مسرور أن يحتفظ بصلفه وكبريائه ، فسأل مقرورا : ألم تحاكم بتهمة الخيانة ؟ قال : بلى ولكنى كنت أقول بأننا سنعود الى الحياة

بعد الموت وها نحن قد عدنا ، ولكن مسرورا سأل عن الوزير وكبير البصاصين ، ولم يعترف بأنه مات ، وانما هو حلم رهيب ثم راجع نفسه بأن الرجل الغامض الذي سقاه كأس الموت لم يكن حلما كما أن العذاب الذي ناله في القبر لم يكن حلما ، يبدو أنه مات حقيقة ، فاعتراه الخوف ثم أدرك أنه تسرع حين حاكم مقرورا ، وحكم عليه بالموت ، ولكن كيف يصدقه في أمر البعث ، وكل التقارير التي كانت تأتيه من رجال مملكته تشهد بعكس ذلك ، ولاحظ مسرور أنه يسير وكل البشر يسيرون تجاه الفتحة التي توصلهم الى الأرض ، ومن الذي أمرهم بالسير ؟ لا يدري ! أين قصره ومملكه ؟ لا يوجدان سار مقرور ومسرور على الأرض ، كانت الأرض غير الأرض ، والشمس قريبة منهم ، ولكنها تذوب سريعا ، لاحظ مسرور أن اثنين يسيران معه أحدهما أمامه والثاني خلفه ، الذي أمامه يقود المركب دون كلمة ، وهو مسلوب الارادة كأنه يساق بقوة خفية ، والذي خلفه التصق به التصاق الشاهد بالجاني ، هنا أدرك مسرور أنه ليس حرا ، وأنه مقبوض عليه .

وكذلك كان ادراك مقرور بالسائق والشهيد مع الفارق في احساس كل منهما ، وأخبر مقرور أنها بداية القيامة حيث بدأت البحار في الانفجار بصورة مهولة ، وتحول موجها الى نار ، وتشققت الأرض عن أجيال لا نهائية من البشر ، ونسفت الجبال ، وصارت كالصوف المنفوش وعاد مسرور يعتذر لمقرور عما حدث منه ، ولات ساعة مندم ، ومادت الأرض بما عليها ، وكان مقرور ينعم بذكر الله يطمئن قلبه ، أما مسرور يحس بهول الموت يأتيه من كل جانب وما هو بميت ، وحشرت جميع الخلائق من انس وجن وحيوان على اختلاف الأشكال والأجناس والألوان ودنت الشمس من الخلائق ، وسال العرق من الناس ، وبلغ الناس فيه بقدر أعمالهم ، وشغل كل

مخلوق بنفسه عن أهله وذويه ، وفقد الناس الإحساس بالزمن وبدا غضب الجبار حتى على الملائكة حين وقفوا صفوفا حول أهل المحشر ، وبدلت الأرض غير الأرض والسموات وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع الا همسا ، وأشرقت الأرض بنور ربها ، حينذاك فقد مسرور بصره وكذا كل الكافرين ، كل منهم يصرخ فى أعماقه : رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا ؟ قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى .

أما مقرور فاستقبل نور الله مثلما يستقبل الغريق النجاة ، ووضع الكتاب للحساب وبدأ كل انسان يأخذ كتابا يعرض بالصوت والصورة دقائق أعماله كلها من ولادته حتى ساعة موته ، ونودى مسرور وهو يأخذ كتابه من وراء ظهره : اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ، وهنا أحس مسرور بالاطمئنان حين سمع أنه سيحاسب نفسه ، ظنا منه أنه سيجد ما يبرر به أفعاله لنفسه ، بينما أخذ مقرور كتابه بيمينه وأدركه خوف من فكرة أنه سيحاسب نفسه ونظر فى كتابه بعد تردد خوفا من أن يجد فيه ما يسوء ، فلم يجد سيئات ، فظن أنه ليس كتابه ، لكنه أيقن أنه هو ، فأخذ يعرض كتابه على الخلائق قائلا : هاؤم اقرأوا كتابيه انى ظننت أنى ملاق حسابيه ، أما مسرور فاعتذر للملائكة بأنه صار أعمى ولن يستطيع قراءة كتابه ، لكنهم ردوا عليه أنه سيرد اليه بصره وسيحكم على نفسه ، وسيحاسبه الله بنفسه ، وبدأ يكره نفسه حين شاهد حقيقتها أمام عينيه ، وكان من التهم التى يحاسب عليها تأليه نفسه ، وافساد شعبه ، وأنكر مسرور كل جرائمه ، بعد أن تبرأ منه كل أعوانه ، وجىء بمقرور أمام مسرور وسألوا مسرورا لم قتلت مقرورا ؟

فاعترف بجريمته ، لكنه اعتذر عن كل أفعاله بأن الشيطان سول له وأملى له ، وجىء بالشيطان فتبرأ منه ، ولما رأى ملائكة

الحساب اصراره على انكاره أحيل أمره الى الله عز وجل ، فحاكمه الله دون أن يعلمه أو أن ينظر اليه على كل اعماله ، ووجىء مسرور أن عقله يتكلم وقلبه يعترف وجلده يشهد عليه ، وطال وقوفه امام الله ، أما مقرور فاوقف تحت ظل العرش يعترف بكل خطاياه ، ولكنه لا يجدها فى كتابه ، فيقال له لقد سترتها عليك فى الدنيا وغفرتها لك اليوم ، وتقبلت منك يسير الحسانك ، وبدلت ذنوبك حسنات حين حسنت توبتك فخر مقرورا ساجدا لله حياء منه ، وحبا فيه ... وكان الحساب لكل المخلوقات ، فى وقت واحد ، وقف الأنبياء يتصدرون أقوامهم ، ولجأ الناس اليهم وكذا الى الملائكة ليكونوا شفعاء الله ...

وكشف الحق عن سيقان أهل المحشر جميعا ، وأمرهم بالسجود فسجد المؤمنون ، ووقفه الكفار خيارى ، اذ لا يستطيعون السجود ، وجىء بالموت على هيئة كبش فذبح ، ونصب الملائكة الصراط فوق النار ، يراه المؤمنون جسرا ، ويراه الكافرون شعرة ممدودة ، وصدر الأمر بالعبور فاندفع المؤمنون نحو الجسر ، وتراجع الكافرون ، حينذاك أدرك مسرور كل الملع ، فقد قضى ذبح الموت أمام عينيه على كل أمل له فى الخلاص مما هو فيه بأن يموت ، ورأى نفسه يابس ثيابا من قطران ، ونيران الجحيم تكاد تميز من الغيظ ترتعش ألسنتها خوفا من الجبار أن يعذبها ان لم تعذب أهلها ، وكان الصراط لا نهاية له فى نظر مسرور ودفع دفعا مع الفوج الأول المتميز جدا من فرعون وقارون وهامان وكل جبابرة الأرض ونظر كل واحد منهم الى التراب فوجده أحسن حالا منه ، فقال لنفسه وهو يعض على يديه : يالليتنى كنت ترابا ، وتقدم فرعون ليعبر الصراط فسقط فى ثلثه الأول ، فصار قلب مسرور هواء ، وصرخ يقول : رب ارجعنى أعمل صالحا فيما تركت .. فقيل له : لست فى دار ابتلاء انما أنت فى

ملء الجزاء وسار مسرور على الصراط ، فاذا بالنار ترتفع لسحقها من أعماق الجحيم تزأر باسمه الثلاثى الكامل .

أما مقرور فسار فى اطمئنان يعبر الصراط بجوار رجل يمسك كتابه بيمينه فرحا مسرورا وهما يتأملان الجحيم تحتهما يقول مقرور لجاره : لقد رأيتك من قبل .. فيخبره أنه قاضى القضاة ، ويرحب القاضى بمقرور الذى كان سببا فى انقاذه من النار حين قال كلمة الحق عند السيد الأعظم السلطان الجائر دفاعا عن مقرور ، وبينما يتجاذبان أطراف الحديث لمحا مسرورا يتأرجح وسط أتون النار المجدولة مثل قرد اشتعلت النار فى جسمه ، ولا هو بميت ولا هو بحى ، فكلما أحس بالموت بدلت جلوده ولحمه وأعصابه من جديد ليذوق العذاب ، وتحول ذهبه الذى كان يكنزه فى الدنيا الى سلاسل هائلة تحمى فى النار ثم يقيد بها وتنصهر ويكوى بها جنبه وظهره وصدره وكلما شعر بالعطش يعطى اناء فيشربه دفعة واحدة فتحترق يده ويشوى وجهه وصدره ماء الاناء وحين يصل الماء الى حلقه يسلخه فاذا دخل جوفه قطع أمعاءه وتغلق أبواب النيران على من فيها ، وأيقن « مسرور » بالخلود فيها .. وكل ما رأى وذاق من عذاب لم يكن شيئا بجوار احساسه بغضب الله عليه حين حجبه عنه فلم يكلمه ولم ينظر اليه ، فبدا له أن هذا الحجب هو عين العذاب الأبدى » .

أما « مقرور » فوصل مع وفد المتقين الى باب الجنة وفتحت أبوابها ، وقال لهم خزنتها : « سلام عليكم فادخلوها خالدين » ودخلوا ، ورأوا ما أعد الله لهم من نعيم ، فشراب الجنة له طعم لم يشعر به أحد من قبل ، بل ان حواس أهل الجنة أصبحت تعمل بكفاءة لم تكن من قبل ، ترلب الجنة من الفضة الخالصة ، رائحته مسك وزعفران ، هواؤها مثل ربيع حب فرح ، جوها لا يوصف ،

الخدم فى الجنة ولدان مخلدون أجمل من اللؤلؤ ، رأى مقرور كل ذلك فقال لنفسه : يا الهى ، هـذا ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وحين اقترب من قصره اتسعت دهشته ، ثم يطلع الله على أهل الجنـة ، فيقول لهـم : هل بقى لكم شىء ؟ فيقولون : وأى شىء بعـد ذلك ، فيقول الله : دوام رضائى عنكم فلا أسخط عليكم أبـدا »(٤) .

الشكل الفنى لمسرور ومقرور :

صاغ الكاتب أحمد بهجت عمله هـذا فى شـكل فنى قصصى أطلق عليه : « مسرور ومقرور — لا رواية تبدأ أحداثهـا بعد الموت » ولم يطلق عليه رواية ، مع أنه توافرت فيه بعـض أركان الرواية كما سنذكر فيما بعـد ان شـاء الله ، وعلل لاطـلاقه هـذا المصطلح « لا رواية على عمله الذى نحن بصدده الحديث عنه بأمرين :

أولهما : ان الرواية تبدأ بالحياة وتنتهى بالموت .. هـذه اللا رواية تبدأ من الموت وتنتهى بالبعث ، وتستمر أحداثها حتى نقف وراء أبواب الجنة والنار . الأفضل أن نسميها لا رواية اذن(٥) .

وثانيهما : « أنها حقيقـة ، ليست تخيـلا ولا ابداعا كالأعمال الفنية »(٦) .

فهل كان الكاتب أحمد بهجت محقا فيما ذهب اليـه حين أطلق على عمله هـذا ، « لا رواية » ولم يطلق عليه « رواية » ؟

---

(٤) أحمد بهجت — مسرور ومقرور — المختار الاسلامى للطبع والنشر والتوزيع .

(٥) أحمد بهجت — مسرور ومقرور — ط ٧ المختار الاسلامى .

(٦) المصدر السابق — الصفحة نفسها .

يذكر « فورستر » أحد كتاب الرواية الذين كانوا على وعى بأبداعها ــ أن الرواية قصة خيالية نثرية ذات اتساع معين ، مكتوبة بأسلوب سردى ، ويتراوح هذا الاتساع من كاتب لآخر ، بل ان المراجع التى تحدثت عنه لم تستطع أن تجزم بمداه ، وعلى العموم فهو قد يبدأ من ٢٠٫٠٠٠ كلمة للقصة ، ويمتد الى أكثر من آلاف الصفحات ، على أن الرواية قد تدرجت وتطورت فى أشكال مختلفة الى أن وصلت الى شكلها الحالى : الذى نقرأ الآن فيما نقرأ من القصة الطويلة »(٧) .

كما يذكر أن هناك سبعة أوجه أو زوايا يمكن أن تكون هى أركان هذا الجنس الفنى وهى :

١ ــ الحكاية .
٢ ــ الشخصيات .
٣ ــ الحبكة الروائية .
٤ ــ الاغراق فى الخيال .
٥ ــ الشفافية .
٦ ــ الاطار .
٧ ــ النموذج والايقاع .

ويضيف الدكتور/ مصرى عبد الحميد حنورة وجها ثامنا له نفس الأهمية ان لم يتفوق عليها وهو الوسيط أو اللغة الذى من خلاله سينقل رؤياه الى الخارج(٨) .

ووظيفة الرواية كما يرى « هنرى جيمس » أن الرواية صورة

---

(٧) د/ مصرى عبد الحميد حنورة : الأسس النفسية للابداع الفنى فى الرواية ص ٣١ ، ص ٣٣ ، ص ٥٦ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٩

(٨) المرجع السابق ص ٣٣ .

حيـاة للحياة ، وأن الحياة لا يمكن أن تظهر على أحسن وجوهها فى العمل الفنى ، لن لم يتوفر لها الشكل الفنى المتكامل ، وأن مهمة الفن هى ابراز الحياة فى الصورة الفنية فى أجمل وأتم صورها»(٩) .

وبناء على ذلك فان تعليل أحمد بهجت الأول الذى من أجله أطلق على عمله الذى بين أيدينا « لا رواية » والذى يقول فيه : « ان الرواية تبدأ بالحياة وتنتهى بالموت ... الخ » . ليس سندا قويا يجيز له أن يطلق على عمله هذا لا رواية . « اذ ان كلام فورستر الذى ذكرناه قبلا الذى يحدد مفهوم الرواية ، وأركانها ، لم يتعرض للمدة الزمنية التى تتحدث عنها الرواية . كما أن كلام أ/ أحمد بهجت يخالف سير الأحداث فى مسرور ومقرور ، فتبدأ الأحداث فيها : ليلة شتائية عاصفة انحدرت السحب المبددة فحجبت نور القمر الشاحب ... وانفتح باب مقرور الخشبى بعد أن نجحت الرياح فى زحزحة قطعة الحجر التى وضعها لتسنده ... نفس الوقت ، جلس مسرور أمام مائدة العشاء فى قصره .. »(١٠) .

وقد ذكرنا ذلك فى عرض الأحداث ، فهى لا تبدأ بالموت كما قال المؤلف ، لكنها استمرت أحداثها حتى وقفتنا على مسرور خلف أبواب النار ومقرور فى الجنة .

فالمدة الزمنية استغرقت جزءا من حياة الشخصيات فى الدنيا وكل الآخرة . ولعله يقصد أنها تبدأ من النقطة التى تنتهى عندها الرواية وتستمر حتى دخول أهل الجنة الجنة ودخول أهل النار النار .

ويبقى الدليل الثانى الذى علل به أحمد بهجت لاطلاق هذا

---

(٩) المرجع نفسه ص ٣٥ .

(١٠) راجع أحمد بهجت – مسرور ومقرور ص ١٠ وما بعدها .

المصطلح « لا رواية » على عمله ، والذى يقول فيه « انها حقيقـــة ، ليست تخيلا ولا ابداعا كالأعمال الفنية »(١١) • وهو الذى يصطدم مع تعريف « فورستر » للرواية بأنها « قصة خيالية نثرية » •• وأن أحد أركانها الاغراق فى الخيـــال •• ولعـــله الدليل الأقـــوى الذى جعل الأستاذ أحمد بهجت يطلق على عمله « لا رواية » لكى يبرىء نفســـه من أن يتهم بأنه جعل حقيقة الموت والحياة بعـــده والجنة والنار •• الخ خيـــــالا •

وقد سبق أن قلنا فى المقدمة : ان كون الأحداث حقيقية لا يمنع من أن نطلق عليها رواية ، فالأحـــداث فى الرواية المبتـــدعة ممـــكنة الحدوث ، ولا يمنع أن تكون حدثت كلها أو جلها ولكن بترتيب مغاير لمـــا ورد فى الرواية • والأحداث التى هى من ابتكار وخيال الكاتب لابد أن تكون قادرة على التحقق أو على الأقل تجعـــل العقل يصـــدق امـــكان حدوثها ثم انه استقى أحداث الآخـــرة من القـــرآن الكريم والسنة الشريفة ، وان كان الخيال قـــد قام بدور فعـــال فيها ، فهى حقيقة دينية تصرف فيها الكاتب ، وهذا لا يتعارض مع فنية الرواية •

ويبدو لى أنه لمـــا كان موضوع عمل الأستاذ أحمد بهجت هـــذا جديدا على المتلقى فى الأعمال الفنية ، آثر أن يطلق عليـــه اسما جديدا يتناسب مع جـــدة الموضوع ، وحتى يخـــرج نفسه من الوقوع فـــى دائرة الاتهام بأنه عامل الأحـــداث الحقيقية المؤكدة الوقوع معـــاملة الأحـــداث الخيالية ، أو حتى الواقعـــة فى عالمنا الدنيوى وان كانت جـــد غريبـــة •

وقـــد أراد الكاتب أحمـــد بهجت أن يقـــدم لنا فى عمله هـــذا رؤيته لهذه الحقيقة المؤكدة فى عمل قصصى ليقربه من أذهان المتلقين

---

(١١) المرجع الســـابق ص ٧ •

ولكى يكون أثره أوقع فى نفوسهم حين يضع كل منهم نفسه موضع أحد أفراد العمل الفنى لينظر كيف يكون حاله ، حتى اذا تأكد له نهاية كل فرد من أفراد العمل الفنى وضع نفسه موضع الفرد الذى كانت نهايته خيرة .

ولنا أن نطلق على رؤية الأستاذ/ أحمد بهجت هذه الرؤيا ذات الأبعاد الأربعة وهى الرؤيا الراقية ، أما الرؤيا ذات البعد الواحد ، وهى ما يخص حياتنا اليومية ، هى ما ندركه مباشرة من خلال احساساتنا فى مواجهة الأشياء ، فهذا القلم أراه قلما ، وهذا المصباح أراه مصباحا ، واللوحة المعلقة أمامى على الجدار هى لوحة ، بلا زيادة أو نقصان أما الرؤيا ذات البعدين فهى الرؤيا التى تكون بوجه ما أسيرة لفعل الخيال فتكوين السحابة يشبه أسدين يتعاركان ، وبقعة الحبر ربما أشبهت راقصتين أو طائرا فى السماء ..

وفى الرؤيا ذات الأبعاد الثلاثة لا نرى الأمر بسيطا على نحو ما فى الرؤيا ذات البعدين أننا نراه رمزا ، وهذا ما رآه جوته فى « فاوست » لقد شهد الكورس يغنى . ان الرمز يقدم الحقيقة السامية ، انه الوسط الذى نرى من خلاله الرؤيا المتفوقة للحقيقة ، انه يخصب الجدب الواقعى للعالم بفعل من أفعال الخيال .. الرمز ، واللهو ، والحلم ، تلك هى الأبعاد المتعلقة بالرؤيا ذات الأبعاد الثلاثة .

أما الرؤيا ذات الأبعاد الأربعة فهى رؤيا بعيدة ، رؤيا الأسطورة والنبوة ، رؤيا الفزع والتطهير أى أنها الرؤيا المقدسة ، الرؤيا الابداعية ، ان التهويم الذى يجد المبدع نفسه فيه هو الذى يحدد الدرجة التى تكون عليها الرؤيا ، وهو يحدد اقترابه من الحقيقة حقيقته فى موقف الابداع (١٢) .

---

(١٢) د/ مصرى عبد الحميد حنورة : الأسس الفنية للابداع الفنى فى الرواية ص ٦٦ .

وقد كانت ـ فيما يبدو لى ـ رؤية الأستاذ أحمد بهجت من هذا النوع ـ الرؤيا ذات الأبعاد الأربعة « رؤيا النبوة » .. حيث عرض لنا ما أشار اليه الوحى الالهى من حديث الموت وعذاب القبر ونعيمه ، والبعث ، والحشر ، والثواب والعقاب ... الخ وهى أمور لم يتنبأ بها الأستاذ/ أحمد بهجت لكنها واقعة فى الحال والمآل وقام هو بعرضها على المتلقى ، شاخصة أمامه ، مجسدة ، واقعة على شخص ماثل أمامه فى العمل الفنى ، وتمثل الفزع من هول الموت وغصصه وكربه وسكراته ، وهول سؤال الملكين ، وهول القبر وضمته ، وهول الحشر ، وهول الصراط ... ومصير مسرور فى النار ..

ولنا أن نعد هذا العمل « مسرور ومثرور » نموذجا من الأدب الاسلامى الذى « يستوعب الحياة بكل ما فيها ، ويتناول قضاياها ومظاهرها ومشاكلها وفق التصور الاسلامى الصحيح لهذه الحياة ، ولا يزيف حقيقة أو يخلق وهما فاسدا ، أو يزين نفاقا ويطلق نيرانه على شياطين الانحراف والقهر والظلم ، ومن ثم ينهض بعزائم المستضعفين وينصر قضايا المظلومين ويخفف من بلايا وأحزان المعذبين ويبشر بالخير والحب والحق والجمال »(١٣) .

حيث ركز الكاتب على قضية مهمة من قضايا الحياة ان لم تكن أهمها ، هى علاقة الحاكم بالمحكومين فى الدنيا ، ثم تخيل هذا الحاكم والمحكوم فى مواقف لم يتطرق لها كاتب معاصر ـ فيما أعلم ـ فى عمل فنى ، هى مواقف الموت والحساب والبعث والحشر والثواب والعقاب ... الخ مشاهد الموت والقيامة كما أخبر عنها القرآن الكريم

---

(١٣) د/ نجيب الكيلانى : مدخل الى الأدب الاسلامى ص ٣٤ سلسلة كتاب الأمة جمادى الآخرة سنة ١٤٠٧هـ ـ تصدر عن رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية بدولة قطر ـ الطبعة الأولى .

والسنة النبوية ، وتدخل الخيال فى سرد جزئيات هـذه المشاهد ، وفى اختلاق شخصيتى مسرور ومقرور (الحاكم والمحكوم) ـ ليتابع من خلالهما سرد الأحداث كما وردت مجملة فى القـرآن الكريم والسنة النبوية ، وكما جاءت متخيلة بجزئياتها فى هـذا العمل الفنى .

والكاتب حين مد بصيرته ليطلعنا على موقف كل من الحاكم الظالم الطاغية ، والمحكوم المظلوم وبطانة السوء ـ الوزراء والكبراء ـ فى العالم الآخـر ، كأنه ينبه الحاكم المستبد الذى يفرح بتعاون بطـانة السوء معه ، بل يقهرهم عليـه الى مغبة العاقبة فى الآخرة التى هو وهم فى لهو عنها ، ويحذرهم من سـوء المصـير وحين أرانا موقف المحكوم المغلوب على أمره فى الدنيـا ، صـار عـزيزا منصورا فى الآخرة ، كان يخفف من بلايا وأحزان المعذبين فى الأرض ـ ويبشرهم برضوان الله فى الآخـرة .

وان كان المـؤلف قـد أشـار فى ثنـايا عمله الفنى الى أن هـؤلاء المقهورين المعـذبين فى الأرض هم الذين يصنعون الطغـاة باستكانتهم وخضوعهم لمشيئة الظالمين حيث قال على لسان مسرور حين جىء به ليحاكم بأنه متهم بتأليه نفسه وافساد شعبه ، فأجاب بأنه كان يفعل ما يزينه له وزراؤه ، وكبير البصاصين ، ورئيس العسس ، لكنهم تنصلوا منـه ، وجابهـوه بالحقيقة المـرة التى دفعـوا جميعا ثمن تزييفها ، هنا لطم مسرور وجهه قائلا : (لمـاذا لم يقاومنى أحـد ، لمـاذا لم يثر على أحـد ؟ لقـد كانت استكانة الناس هى الدليل عندى على رضائهم ، لقـد ضيعنى هؤلاء الكلاب الذين أسلمتهم مقاليـد الأمور ، كما ضيعنى الناس حين صبروا على ظلمنا ، لمـاذا صبروا على ظلمنا لهم ؟ لو لم يصبروا عليه لكان حالنا وحالهم أفضل)(١٤) .

(١٤) أحمد بهجت مسرور ومقرور ص ٦٢

انه نداء وجهه الكاتب الى الشعب المستكين يطالبه بنبذ الاستكانة وردع الظالمين وتنبيه الى الحاكم المستبد الذى يفرح للنفاق بل ويقهر الناس عليه أن يرعوى ويتعظ قبل أن يندم ولات ساعة مندم •

كما أشار الكاتب الى تبرؤ الحاكم من فعلته وتبرير قتله لمقرور بعذرين كل منهما أقبح من الآخر : وكلاهما مردود عليه • حين قال : « لست مسئولا عن قتله ، لقد قتله النظام الذى كنت أحكم به » وكأن فى الحقيقة يحكمنى ، لقد قتله النظام وقتلنى معه »(١٥) • وتلك محاولة من الكاتب لنقد النظام الشمولى فى الحكم •

أما العذر الآخر فهو أنه قال : (ان الشيطان هو الذى دفعنى لكل ما فعلت ••• ورد الشيطان عليه ساخرا ومتبرئا منه قائلا : « هل رأيتنى أركبك مثل دواب الركوب وأسوقك نحو الخطيئة ، كل ما فعلته أننى دعوتك الى الشر فلبيت الدعوة ، ما كان لى عليك من سلطان أكثر من ذلك انى برىء منك ••• انى أخاف الله رب العالمين •• لا تلمنى ووجه اللوم لنفسك »(١٦) • ولعله يشير بذلك الى استمرارية الفساد الذى يحتاج منا الى معاناة شديدة فى محاربته •

وقد كان اطلاقنا على هذا العمل الفنى أدبا اسلاميا من منطلق أنه ناقش قضية علاقة الحاكم بالمحكوم من منظور اسلامى يؤمن بالبعث والحساب والجزاء الأخروى • وذلك « لا يصدر الا عن ذات نعمت باليقين وسعدت بالاقتناع ، وتشبعت بمنهج الله ، ونهلت من ينابيع العقيدة الصافية ، ومن ثم أفرزت أدبا صادقا ، وعبرت عن التزامها الذاتى الداخلى دونما قهر أو ارغام »(١٧) •

---

(١٥) المصدر نفسه ص ٦٣ •

(١٦) المصدر نفسه ص ٦٤ •

(١٧) د/ نجيب الكيلانى مدخل الى الأدب الاسلامى ص ٣٦ •

وقد كان الكاتب أحمد بهجت ـ فيما نحسب ـ كذلك ، ولا نزكى على الله أحدا .

الشخصيات :

« البطل فى العمل الأدبى ـ قصة أو مسرحية أو ملحمة ـ هو تجسيد لمعان معينة أو رمز لدور ما من أدوار الحياة وخاصة الهامة منها ، وقد يكون هذا البطل أنموذجا يحتذى أو مثالا سيئا يولد النفور والاشمئزاز ، وهو فى كلا الحالين ذو تأثير ايجابى قبولا أو رفضا وكلما كانت الشخصية ـ البطل ـ قريبة من الواقع حافلة بعناصر الاقناع مكتملة الملامح والسمات أصبحت أكثر جاذبية وأعمق تأثيرا »(١٨) .

وفى العمل الذى بين أيدينا شخصيتان محوريتان تدور حولهما الأحداث ، يصح أن نطلق عليهما بطلى هذا العمل ، كل منهما تجسد معنى يخالف ما تجسده الأخرى فشخصية مسرور تجسد الظلم والطغيان والجبروت والحكم الديكتاتورى ، وترمز لكل حاكم ظالم وصل الى الحكم عن طريق الدسائس والتآمر والخيانة والقتل ، فهو الذى وضع مسحوقا بثمانية آلاف من الجنيهات الذهبية ـ وهو مبلغ ليس بالكثير قياسا الى ثروته الضخمة ، فهو يساوى ايراد يوم واحد من مكاسبه ـ وضع هذا المسحوق فى نبيذ الملك فمات وهو نائم ، وخلفه على العرش آخر صار ألعوبة فى يد مسرور .

---

(١٨) د/ نجيب الكيلانى : مدخل الى الأدب الاسلامى ص ٥٠ ـ سلسلة كتاب الأمة جمادى الآخرة ١٤٠٧هـ الطبعة الأولى رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية بدولة قطر .

وهو الذى على الرغم من ثرائه الفاحش كان يشعر أنه يستحق الشفقة ، لأنه فقير ، فالفقير فى نظره هو من لا مال له ، وهو غبى يستحق الحرق ، أو من له مال أرباحه أكثر من قدرته على الحساب ، وهو بائس يستحق الشفقة وهو من هذا النوع ، ولما كان هو كذلك — كما يزعم — فانه لم يكن مستعدا لأن يواسى أحدا ، لأن القرش الذى سيدفعه لفقير هو بداية الثغرة فى أى ثروة ، لأن بلايين الجنيهات ليست الا قروشا قد تراكمت فاذا فرط فى قرش واحد منها انقطع خيط العقد وسقطت حباته وتناثرت ، وهذه بداية النهاية لضياع أى ثروة ، انه منطق الأغنياء والبخلاء الجاحدين ، الذين قست قلوبهم وتحجرت وعميت وران عليها حب المال . وكأنه بهذا يبرر لنفسه تقصيره فى تقديم الصدقات الواجبة عليه للفقراء ، وهو كما ترى تبرير سخيف وسمج .

وقد جسد الكاتب شخصية مسرور وجعلها مثالا سيئا ولد النفور والاشمئزاز من الظلم والظالمين لدى المتلقى ، وهو بذلك قد يشمع الظلم وقبحه وينفر منه حين أرانا علقيته السيئة متمثلة فى موت السيد الأعظم (مسرور) ودفنه سرا فى مقبرة السجن ، وهو الذى كانت له مقبرة رخامية خاصة فى قصره — مع العلم بأن فخامة المقبرة أو رداءتها لا يغير من الأمر شيئا بالنسبة للمقبور — ولعله يشير الى التسوية التى فرضها القدر ، فقد نام متجاورين ، وهى لفتة فنية من المؤلف — وما لاقاه فى قبره من فيح نار جهنم ، وصيرورة القبر حفرة من حفر النار ، وكان سوء المصير ينتظره فى الموقف العظيم ، فى موكب خاص مع كبار العتاة والمجرمين ، وكانت النهاية الخلود فى نار جهنم ، كل ذلك وغيره مما ذكره الكاتب وأشار اليه وترك المتلقى بتخياله جعل الشخصية أعمق أثرا أرفض مثل سلوك هذه الشخصية فى المتلقى .

أما الشخصية المحورية الأخرى من الشخصيتين اللتين تدور حولهما الأحداث فهى شخصية مقرور وهى تجسد معنى الايمان واليقين والتوكل والقناعة والرضا بالقضاء ... الخ المعانى التى ذكرها الله فى وصف عباده المؤمنين ، وترمز لكل مؤمن عبر العصور والدهور وموقف الطغاة منه ، وكانت هذه الشخصية أنموذجا يحتذى فى ايمانها وصلابتها ورضاها وشجاعتها فى استقبال الموت دون هلع ، ثم أرانا المؤلف الجزاء الأخروى لها بدءا من سهولة نزع الروح وصيرورة القبر لها روضة من رياض الجنة تنعم فيها ، وكانت ايجابية هذه الشخصية فى صلابة موقفها فى الدفاع عما تؤمن به من الايمان بالله الواحد الأحد والبعث والجزاء .. على الرغم من صنوف التعذيب التى لقيتها أثناء المحاكمة وفى السجن وصمودها حتى الموت حرقا مع أن مقرورا كان مارقا ولكنه تاب ، وهذا يعطى الأمل للعصاة ، ويدفعهم الى الندم والتوبة الى الله الذى يبدل سيئاتهم حسنات .

وقد اختار الكاتب لكل شخصية من هاتين الشخصيتين اسما يوافق حالها ودورها فى العمل الفنى حيث يقول : « ان أسماء الأبطال خيالية ... »(١٩) . ومثلما يقع فى الحياة أن يكون للناس من أسمائهم نصيب .. كان لمسرور نصيب ، ولمقرور نصيب(٢٠) .

اذن فهذين الاسمين من خيال الكاتب واختياره ، وهو موافق لحال كل من الشخصيتين ولما تدل عليه اللغة من معان ، فمسرور هو الغنى بماله ، القوى بجاهه وسلطانه ، الفتون بعقله وذكائه ، الأمر

---

(١٩) أحمد بهجت : مسرور ومقرور ص ١٠ .

(٢٠) المصدر نفسه ص ٩ .

الذى جعله فرحا مسرورا ، فهو يشعر بالارتياح لحصول النفع ، واندفاع الضر الدنيوى ، لكنه لم يصل — على الرغم من كل ما أوتى — الى الاطمئنان والسكون والرضا والهدوء ... الذى يجعله مقرورا ، فاللغة تقول : « السرور : خلاف الحزن ، والسرور الفرح »(٢١) .

والسرور : ارتياح فى القلب عند حصول نفع أو توقعه ، أو اندفاع ضر »(٢٢) .

واللغة تقول فى معنى مقرور : « يقال : قر بالمكان قرارا ، سكن واطمأن ، وقر عينه : سر ورضى ، فهو قرير العين ، ويقال : قر بهذا الأمر عينا ، وفى القرآن الكريم : كى تقر عينها ولا تحزن »(٢٣) .

وقوله تعالى : « فكلى واشربى وقرى عينا »(٢٤) ... أى طيبى نفسا . وأقر الله عينك أى بلغك أمنيتك حتى ترضى نفسك وتسكن عينك فلا تستشرف الى غيره ، وأقر الله عينه وبعينه ، أعطاه حتى تقر فلا تطمح الى من هو فوقه ويقال : حتى تبرد ولا تسخن ، وقال بعضهم : قرت عينه مأخوذ من القرور وهو الدمع البارد ، ويخرج مع الفرح ، وقيل من القرار ، وهو الهدوء (٢٥) .

---

(٢١) ابن منظور : لسان العرب مادة سرر — الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(٢٢) مجمع اللغة العربية . المعجم الوجيز مادة سرر ص ٣٠٩ الطبعة الأولى .

(٢٣) المرجع السابق ص ٤٩٦ مادة قرر والآية من سورة القصص — بعض آية رقم ١٣ .

(٢٤) بعض آية رقم ٢٦ من سورة مريم .

(٢٥) ابن منظور : لسان العرب : مادة قرر .

وقد يكون الاسم مأخوذا من القر والقرة وهى البرد الشديد(٢٦) ، فكأن مقرورا يعانى من البرد الشديد لعدم وجود المال الذى يقيه برد الحياة فهو مقرور مرتعش يقاوم البرد بجسده الهزيل ، العارى ، ويكابد عواصف الحياة ، هذا اذا أخذنا التضاد بين الاسمين وعزوناه الى المال ، الذى يجلب الدفء لصاحبه ويجعله آمنا مسرورا ، والفقر الذى يعرى صاحبه ويجعله نهبا للأنواء والأعاصير ، وأنا أميل الى التفسير الأول ، أى من القرار والاطمئنان الايمانى ، لأن السرور أمر ظاهرى ، فقد يضحك الانسان ويفرح ، لكن لكل هذا لا يتجاوز ظاهره ، أما باطنه فقد يكون عكس ذلك ، وقد كان « مسرور » كذلك ، فهو على الرغم من ثرائه وجاهه وسلطانه الا أنه كان يعد نفسه بائسا يستحق الشفقة ، لأن مكاسب أمواله أكبر من مقدرته على حصرها ، وقد كان يشغل نفسه بمؤامرات ودسائس ومكائد وخيانات وقتل .... وكل هذا جعله يعيش حياة القلق والخوف والتوتر وان كان ظاهرها الفرح والسرور أما القرار والاطمئنان والهدوء والسكينة فهو أمر القلب ، أمر الباطن وهو دائما يظهر أثره على الظاهر : فالانسان المطمئن ، قرير العين والقلب ، راض بما قسم له ، طيبة نفسه ، وهذا ينعكس على كل أعضائه ، وأهمها الوجه الذى هو مرآة ينعكس عليها أسرار القلب ، وصدق رسول الله ﷺ حين قال : « ... ألا وان فى الانسان مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله ، واذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب »(٢٧) .

وأهم ما يشعر به الانسان من هذا النوع هو الأمن والأمان ،

---

(٢٦) مجمع اللغة العربية : المعجم الوجيز مادة قر ص ٤٩٦ .

(٢٧) أحمد بن حنبل : مسند الامام أحمد بن حنبل ٤/ ٢٧٠ – المكتب الاسلامى للطباعة والنشر .

وقد كان « مقرور » كذلك ، يعيش حياة بسيطة سهلة غير معقدة ، آمنا فى سربه ، معافى فى بدنه ، عنده قوت يومه ، فكان يشعر أنه ملك الدنيا بحذافيرها ، فى ظل ما يؤمن به من تعاليم الاسلام وآدابه • وقد كان الأستاذ أحمد بهجت موفقا فى اختيار الاسمين « مسرور » و « مقرور » ونسبة كلّ منهما الى صاحبه •

وقد صور الكاتب « مقرورا » بأنه أخذ عقيدته من نبى التقى به فى الشرق ، لكنه لم يحدد اسم هذا النبى ولا مكانه ولا زمانه : لكنه وصف لنا عبادة مقرور بأنها صلاة تؤدى بركوع وسجود • وهذه صفة صلاة المسلمين أتباع النبى محمد ﷺ ، فلم لجأ الكاتب الى هذه التعمية ولم يفصح عن هوية مقرور ، ولا عن النبى الذى التقى به ، ولا عن الزمان الذى وجد فيه ، وكنا ننتظر منه الاقرار صراحة بأن مقرورا ينتمى الى الاسلام ، وأنه أخذ عقيدته من الكتب ، وأن مسرورا من عباد الأوثان ، وأنهما وجدا فى بلدة يعبد بعض مواطنيها الأصنام والبعض الآخر ينتمى الى ديانة الاسلام ، خاصة وأن هذا موجود الآن كالهند وكشمير فهما فى دولة واحدة •

وفى العمل الذى بين أيدينا شخصيات أخرى هى (الوزير الأول ، وكبير البصاصين ، ورئيس العسس ، وقاضى القضاة ، والجلاد والحارس) •

أما الوزير وكبير البصاصين ، ورئيس العسس ، وقاضى القضاة فكان أول ظهور لهم فى العمل الفنى حين كانوا ضيوف السيد الأعظم فى قصره الفاخر ، يأكلون ويشربون الخمر ويتحاورون فى قضية « مقرور » الذى يقول : ان الانسان بعد موته وصيرورته ترابا سيعود ويستيقظ من الموت ويقف أمام الله ليحاسبه ، وكان قاضى

القضاة يؤيد ما يؤمن به « مقرور » الى أن نهره « مسرور » الذى تدخل فى الحوار قائلا له : أنت لا تصلح أن تكون قاضيا للقضاة ، وكانت هذه الكلمة بمثابة قرار بعزل قاضى القضاة ، الأمر الذى جعله يتراجع فى الحال عن رأيه ووصف مقرورا بالكذب والجنون ، أو أنه مريض بالحمى ، وظل مرتعد الفرائص الى أن ضحك مسرور بعد أن سمع من — كلاب الحراسة — على حد تعبيره(٢٨) — من يقول : انها مؤامرة ، وآخر يقترح أن يسجن مقرور وجاء دور القاضى فى الكلام ليعلن أن التهم الموجهة الى مقرور عقوبتها الاعدام حرقا ، كل هذا ارضاء للسيد الأعظم ، واتقاء لغضبه لكن « مسرورا » وضع لهم خطة جهنمية لموت « مقرور » بحادث حريق مؤسف من جراء اهماله فى عدم اغلاق باب الكوخ وعدم اطفاء المشعل ، وتبارى الحاضرون فى نفاق السيد الأعظم بعد رسمه هذه الخطة ، وفيهم قاضى القضاة ، ولعل السر فى خضوع قاضى القضاة لافتراءات مسرور وانجرافه فى تيار النفاق مع شلة المنافقين من حاشية مسرور راجع الى أن القاضى كان موظفا من موظفى « مسرور » يستطيع أن يخلعه متى شاء ، وأن يفقده مصدر رزقه الوحيد ، ففى لحظة ضعف رأى أنه لابد من مماشاة الحاكم حتى ينجو من بطشه ، بدليل أنه لما تخلص من خوفه جهر بصوت الحق والانصاف .

وعلى هذا ينبغى أن يكون العلماء حتى لو فقد أحدهم رزقه أو حياته دفاعا عن دينه .

وقبل التنفيذ غير « مسرور » رأيه وأمر باحضار مقرور ليحقق معه ، وأثناء التحقيق تظهر شخصية « الجلاد » الذى يمارس القهر

---

(٢٨) أحمد بهجت : مسرور ومقرور ص ١٨ .

والجلد للضعفاء للحصول على ما يريد منهم الطغاة لكن « مقرورا » كان أقوى على الاحتمال ، ولم يتراجع عما يؤمن به ، واتهمه السيد الأعظم بالخيانة وأوحى الى قاضى القضاة أن يصدر فتوى باباحة دم مقرور ، لكن صحوة ضمير قاضى القضاة جعلته يرفض أن يشترك فى هـذه الجريمة الى النهاية ، فقال دون تفكير : « اتهم برىء .. » .

ولعل مشاهدة العذاب الذى انصب على مقرور ثم صلابته فى تحمل هـذا الألم المبرح جعله يلوم نفسه على تخاذله وحيـدته عن الحق ، فكانت نهايته أن أجبروه على شرب كأس خرج على أثره محمولا على الأعناق . وأصـدر مسرور أمرا بحرق مقرور .

هـذه الشخصيات هى بطـانة السوء للحـاكم المستبد الذين يزينون له الفساد صلاحا ارضاء له ، كانت مثالا سيئا يولد النفـور والاشمئزاز منها ومن أفعالها ، وقد أحسن الكاتب صنعا اذ أرانا سوء مصيرها وحسن مصير (قاضى القضاة) « ليهلك من هلك عن بينـة ويحى من حى عن بينـة »(٣٩) .

أما الوزير وكبير البصاصين ورئيس العسس فقد استشهد بهم مسرور حين جىء به ليحاسب ويحاكم باتهامه بتأليه نفسه ، وافسـاد شعبه وتزوير ارادتهم وتكبره عليهم ، واتهمهم بأنهم خدعوه فقـالوا له بكل جرأة ووقاحة : نحن لم نخدعك ، انما خدعتنا أنت بسلطانك فاتبعناك وكنا صـدى لصوتك ، وأداة وضيعة لمشيئتك وكانت الأكاذيب عن المؤامرات الموهومة هى أفكارك أنت ، وكنت تحب أن تسمعها من أفواهنا نحن ، وكان هـذا معيار الولاء عندك ، وكان جزاؤهم مثل جـزائه .

---

(٣٩) سورة الانفال الآية ٤٣ .

أما قاضى القضاة الذى بدأ حياته بوقا من أبواق الحاكم يردد أفكاره فتاوى وأحكاما توافق هواه ومشيئته ، وختمها بكلمة حق فى وجهه ، وكان أن فقد حياته بسببها ، فقد أرانا الكاتب مصيره الحسن حين كان يعبر الصراط بجوار « مقرور » ممسكا كتابه بيمينه ـ بسرعة طيبة يتجاذبان أطراف الحديث، يعرف القاضى مقرورا بنفسه ومرحبا به ، شاكرا لله أن « مقرورا » كان سببا فى انقاذ حياته من النار مشيرا الى كلمة الحق وفاعليتها ، وجزاء فاعلها ، معانقا مقرورا ، وهما يتأملان حال مسرور من تحتهما وهو يتأرجح وسط أتون النار المجدولة مثل قرد أشعلت النار فى جسمه .

وهذه الشخصيات الثانوية جاءت لتعمق فكرة جنوح الحاكم الى الظلم واغراقه فى الفساد وقد تسببوا فى حجب الصلاح والعدل عنه بتخاذلهم واستكانتهم ، بل وتزيين الباطل مما أغراه بفعل ما فعل وهم وان كانوا شخصيات ثانوية الا أنهم قوة قادرة وفاعلة فى تعبئة الحاكم وشحنه بكل ما هو رديء ، لأنهم وصوليون ، يجدون مصالحهم فى كنف هذا الطاغية فلا يعملون على اغضابه ، ونفوره منهم حتى لا يتصون عن مجلسه ، فهم دائما يؤمنون على ما يقول ويستحسنون ما يفعل ، وتلك رسالة موجهة الى الشعب والحاكمين معا تقول : ان وراء كل مغتر نفسا أمارة بالسوء ، وبطانة حياتها فى ارضاء الحاكم المستبد ، وعلى الشعب أن يتخلص منهما معا أو تستيقظ ضمائرهم كما فعل قاضى القضاة ، فتتطهر الحياة ويستقيم أمر الناس .

فالشخصيات الثانوية هذه قامت بدورين متضادين أحدهما فى الحياة ، وهو اغراء الحاكم على الفساد والثانى فى الآخرة ، وهو التنصل منه والقاء اللوم عليه ، ومع ذلك لم ينجوا من العقاب ، فهم صناع الدسائس ومحركو الفتنة وباعثو الظلم فى قلوب الطغاة .

اللغـة والأسـلوب :

« المبدع شخص أحس بالتوتر وتعمق لديه هـذا الاحسـاس للدرجة التى جعلته يرى ما لا يراه غيره من أبنـاء مجتمعه ، ومن ثم كان نشاطه الابداعى يسير فى اتجاه الدعوة الى اعتناق رؤية جـديدة قـد يكون هو وحـده الذى يراها ، وقـد يراها معه غيره ، ولكنـه على نحو ما هو الذى تمكن من التعبير عنها وبطريقته الخاصة » (٣٠) .

والمادة التى يستخدمها الروائى فى التعبير هى اللغة ـ الكلمات ـ وطريقته الخاصة فى تشكيل هـذه المـادة هى الأسلوب الخاص به ، ولكل كاتب أسلوبه أو طريقته الخاصة التى لا يشاركه فيها غيره ، وان اتفق معـه فى المـادة الخام (اللغـة) التى يصنع منها كل منهم عمله الفنى ، وحتى هـذا الاتفاق لا يكون تاما ، فالأسلوب : طريقـة يستعملها الكاتب فى التعبير عن موقفه والابانة عن شخصيته الأدبية المتميزة عن سواها لاسيما فى اختيار المفردات وصـياغة العبـارات والتشابيه والايقاع ، ويرتكز على أساسين :

أحدهما : كثافة الأفكار الموضحة وخصبها وعمقها أو طرافتها .

والثانى : تنخل المفردات : وانتقـاء التراكيب الموافقة لتـأدية هـذه الخواطر ، بحيث تأتى الصياغة محصـلا لتراكم ثقافة الأديب ومعـاناته (٣١) .

---

(٣٠) د/ مصرى عبد الحميد حنورة : الأسس النفسية للابداع الفنى فى الرواية ص ١٦ وما بعدها الهيئة المصرية سنة ١٩٧٩م .

(٣١) جبور عبد النور ـ المعجم الأدبى ص ٢٠ دار العلم الملايين ـ الطبعة الأولى مارس ١٩٧٩م .

أما اللغة التى يستخدمها الروائى لنقل أفكاره (ورؤاه) فهى لغة خاصة قد تختلف عن لغة المسرحية من حيث ان لغة المسرحية لغة حوارية تسرد بضمير المتكلم على حين أن لغة الرواية لغة سردية أساسا ، ومن هنا فهى تحاذر من الوقوع فى المؤرخين ... وربما كانت لغة الشعر هى أقرب اللغات الى الرواية (التى هى أداة متكاملة لنظام النحى) .

اللغة الروائية اذن ليست فقط وعاء لنقل المادة الفكرية للرواية بل هدفها بالاضافة الى ذلك هو التعامل مع الإحساس البشرى .... وهى ليست قضايا منطقية بل تجسيد فنى لكيان مادى ، ومن خلال هذه اللغة الخاصة يتحقق الهدف من الرواية(٣٢) .

فهل تحقق فى « مسرور ومقرور » ما ذكرناه مما يتعلق باللغة والأسلوب ؟ بداية نجد الكاتب يبدأها كما يبدأ الرواة للفن الشعبى حكاياهم قائلين :

« كان ياما كان » حيث يقول : « فى قديم الزمان وحاضر العصر والأوان عاش رجلان مختلفان ــ كان اسم أحدهما « مسرور » والثانى اسمه « مقرور »(٣٣) . وأخذ فى سرد قصتهما لكنه لم يستمر فى هذه اللغة التى تعتمد على قول الراوى ... بل جعل يصف لنا كلا منهما ، ثم دخل بنا لنعيش مع كليهما حياته كما عاشاها نسمع منهما ، ونرى ، ونتعجب ونفرح ، ونحزن .. وكانت لغة كل من البطلين

---

(٣٢) راجع د/ مصرى عبد الحميد حنورة : الأسس النفسية للابداع الفنى فى الرواية ص ٣٤ .

(٣٣) أحمد بهجت : مسرور ومقرور ص ٩ .

« مسرور ومقرور » وباقى أفراد العمل الفنى كما سنرى فيما بعد ـ دالة على طبيعة كل شخصية ، فكلمة لغة « مسرور » تنبىء عن تكبره وتجبره وقلة ايمانه من أول كلمة قالها فى العمل الفنى ، فحين سمع صوت الرياح ورأى أثرها فى الأشجار قال : يبدو أن شياطين الرياح قد أطلقت من عقالها (٣٤) ثم دلف بعدها الى الحديث عن غناه وثروته ، وهو حديث الفتخر المزهو .

أما أول كلمة نطق بها مقرور فى العمل الفنى ، فقالها بعد ليلة شاتية عاصفة كادت تهدم كوخه ، وفى الصباح قام لأداء الصلاة فوجد كلبا رابضا عند مدخل الكوخ ، قال : « سبحان الله هذا ضيفة أرسله الله تعالى الينا ... »(٣٥) .

وهى كلمات تنبىء عن ايمانه بالله اذ بدأها بالتعجب على طريقة المسلمين المؤمنين الذين اذا رأى الواحد منهم ما يدعو للعجب قال: سبحان الله !! كما أنها تدل على رقة قلب قائلها ورحمته التى وسعت الحيوان الأعجم ، فضلا عن الانسان الذى فضله الله وكرمه ، كما أنها تشير الى كرم قائلها اذ عد هذا الحيوان الأعجم ضيفا ، ومن أين ؟ من عند الله ، وهذا شأن المؤمن ، كل ما أصابه من خير فهو من عند الله .

وهكذا لو تتبعنا كلمات كل شخصية من شخصيات هذا العمل الفنى سنجد أن لغة كل شخصية تنبىء عن طبيعتها بدءا من قاضى القضاة ومرورا بالوزير الأول وكبير البصاصين ورئيس العسس .

فهذا رئيس العسس يرفع الى السيد الأعظم « مسرور » تقريرا

---

(٣٤) أحمد بهجت : مسرور ومقرور ص ١٢ .

(٣٥) المصدر السابق ص ٢١ .

عن حالة « مقرور » قائلا وقد راقبنا « مقرورا » أياما متواصلة ، فلم نره يتصل بأحد ، ولا نما الى علمنا أن أحدا يتصل به — ورغم ذلك •• فاننا لم نزل نراقبه •• ان الرجل يسكن فى كوخ له باب أضعف من أن يصد الرياح ••• ومن ثم فان الباب مفتوح طوال الوقت •• ونحن نراقبه من خلال الباب المفتوح — المشكلة التى صادفتنا ، أو بمعنى أصح •• المشكلة التى فجرتها هذه القضية فى عقلى أنه ليس لدينا نحن العسس قدرة لمعرفة أفكار الناس ، وبالتالى فاننا لا نعرف كيف يفكر « مقرور » ••• ولن نخسر شيئا لو انتظرنا »(٣٦) •

كلمات رئيس العسس : « راقبنا » لم نزل نراقبه •• ونحن نراقبه توضح أن المهمة المنوطة به هى مراقبة الناس ، وعد حركاتهم وسكناتهم عليهم ، والذى يؤرقه أنه لا يستطيع أن يعرف ما يدور بخواطرهم •• كما أن كلماته توضح أنه يستعمل سياسة النفس الطويل « لن نخسر شيئا لو انتظرنا » طالما أنه يراقب تحركات اتهم ويعرف المتصلين به ويحاصره فلا شك أنه سيصل الى ما يريد ، اذ لا يستطيع أى شخص أن يصبر أمام هذا الحصار الذى يحصى عليه أنفاسه •

وهذا حوار يدور بين رئيس العسس وكبير البصاصين يوضح مهمة كل منهما : « قال رئيس العسس بحزم هامس : الأوامر التى لدينا هى ضبطه واحضاره •• نحن مأمورون فى نهاية الأمر •• هل تقبض عليه أنت أم تترك لى هذه المهمة ؟ قال كبير البصاصين : لا •••• القبض مهمتك أنت أما استخراج الحقيقة مهمتى أنا ، لن

---

(٣٦) أحمد بهجت : مسرور ومقرور ص ١٨ •

أتدخل فى مهمتك فلا تتدخل فى مهمتى .. دعه لى ، ان لى ألوانا من العذاب تجعل الحجر يعترف بكل شىء »(٣٧) .

فعبارات رئيس العسس : « الأوامر التى لدينا هى ضبطه واحضاره » « نحن مأمورن » « هل نقبض عليه » توضح مهمته وهى الضبط والاحضار ، والقبض على المتهمين حسب الأوامر التى تأتى اليه ، وهى تعابير تتردد كثيرا بين رجال الشرطة ، فمهمتهم تنفيذ الأوامر التى تصدر اليهم من السلطة الأعلى . وعبارة الضبط والاحضار جملة عصرية مستقاة من لغة وكلاء النائب العام فهم يصدرون أوامرهم بضبط واحضار المتهم .

أما استخراج الحقائق فمهمة المحققين من رجال الأمن ، ويعترف كبير البصاصين أنه له وسائله التى تجعل الحجر يعترف بكل شىء مبالغة منه فى استنطاق المتهمين بما يطلب منهم بالقهر والتعذيب : وهذا لا يشيع الا فى ظل الحاكم المستبد .

كل هذا باحت به اللغة المستعملة على لسان كل شخصية فأبانت عن حقيقتها ، ونوع عملها وطبيعته ، وهى لغة تجمع بين الألفاظ المستعملة قديما مثل : رئيس العسس ، كبير البصاصين قاضى القضاة ، والألفاظ المستعملة حديثا مثل : الضبط والاحضار .. القبض .. الخ مما يؤكد ما قاله الكاتب فى بداية عمله الفنى : ان القصة حدثت قديما وتحدث الآن : حين قال : « فى قديم الزمان ، وحاضر العصر والأوان ، عاش رجلان ... » فى حين أن ألف ليلة مثلا تقول عند القص : فى قديم الزمان وسالف العصر ، وليس حاضر العصر .

وحين تصل أحداث العمل الفنى الى المرحلة التى يتحدث فيها

---

(٣٧) أحمد بهجت : مسرور ومقرور ص ٢٤ .

عن الموت وسكراته وسؤال الملكين فى القبر ، ونعيم القبر وعذابه والبعث والحشر والحساب والجنة والنار .... وهى أمور صورها القرآن الكريم والسنة النبوية ، وجدنا الكاتب يستعين بلغة القرآن الكريم والسنة النبوية آنا باللفظ وآنا بالمعنى وثالثة بالمزاوجة بينهما فى التعبير عن هذه الأحوال ولا مراء فى أن القرآن الكريم بنسقه التعبيرى المعجز وايحاءاته وظلاله الوارفة ، يضفى على أى عمل يستلهمه بأى صورة ، ما لا نستطيع وصفه أو تحديد كنهه من تأثير فى المتلقى فى كل مشهد من مشاهده أو صورة من صوره أو موقف من مواقفه التى استعان المبدع فيها بالقرآن الكريم بلفظه أو تمثل آية من آياته أو لفظة من ألفاظه أو معنى من معانيه ...

فمثلا حين يتحدث الأستاذ/ أحمد بهجت عن مشهد الفناء والبعث يقول : « .. ثم شاء الله تبارك وتعالى أن ينفخ اسرافيل فى بوقه النفخة الثانية ، فأمره أن يفعل .. التقم اسرافيل البوق ونفخ فيه وهو يتمتم .. » وما قدروا الله حق قدره ، والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون » (٣٨) .

كانت هذه النفخة أمرا من الله تعالى أن يبدأ يوم القيامة ، وبدأ أطول يوم فى تاريخ الكون ، لقد عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان ، اليوم تموت السماوات والأرض والجبال ويستيقظ الانسان من موته ليسأل عن أمانته (٣٩) .

---

(٣٨) سورة الزمر آية رقم ٦٧ .

(٣٩) أحمد بهجت نسيج وحدها ص ٢٦ وما بعدها .

فى هـذا الجزء من كلام الكاتب يشير الى آيات من القرآن الكريم دون ذكرها بلفظها أو ألفاظ منها ـ ومرة ثانية يورد الآية بلفظها ، ومرة ثالثة يشير الى الآية من القرآن ذاكرا بعضا من ألفاظها .

فمما أشار الكاتب فيه الى الآيات من القرآن الكريم دون ذكرها بلفظها أو بعض منها قوله « ثم شاء الله تبارك وتعالى أن ينفخ اسرافيل فى بوقه النفخة الثانية فأمره أن يفعل » يشير الى قول الله عز وجل « ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض الا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون »(٤٠) .

وقد أشار الكاتب الى طول يوم القيامة حين قال : « وبدأ أطول يوم فى تاريخ الكون » حين قال « وبدأ أطول يوم فى تاريخ الكون » وهو هنا يشير الى ما ورد فى القرآن الكريم عن طول يوم القيامة مثل قوله تعالى : « سأل سائل بعذاب واقع . للكافرين ليس له دافع . من الله ذى المعارج . تعرج الملائكة والروح اليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة . فاصبر صبرا جميلا»(٤١) .

وقوله تعالى : « يدبر الأمر من السماء الى الأرض ثم يعرج اليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون »(٤٢) .

وقوله تعالى : « ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون »(٤٣) .

---

(٤٠) سورة الزمر آية رقم ٦٨ .

(٤١) سورة المعارج من الآية ١ ـ ٥ .

(٤٢) سورة السجدة آية رقم ٥ .

(٤٣) سورة الحج آية رقم ٤٧ .

ولا تعارض بين الرقمين الواردين فى الآيات السابقة « خمسين ألف سنة » و « ألف سنة » وليس هذا موضع تفصيل عدم التعارض لأن العدد ليس مقصودا فى ذاته وانما المراد الاشارة الى طول اليوم •

وكان المؤلف موفقا حين أشار الى طول هذا اليوم بأنه أطول يوم فى تاريخ الكون دون الخوض فى تعليل ذلك ، بل تركه لمن أراد أن يهتدى اليه من اشارات القرآن الكريم •

ومما أورد الكاتب فيه الآية بلفظها قوله : « التقم اسرافيل البوق ونفخ فيه وهو يتمتم وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون »(٤٤) •

وكان ذلك منه ليهىء المتلقى أن يستعد ليوم القيامة ، ويذكره بقدرة الله تعالى التى تقبض على الأرض جميعا ، والسماوات السبع مطويات بيمينه ، يمين القدرة سبحانه تنزه عن أن يكون له ند أو ولد أو شبيه مما يشركه معه المشركون ، فهم لم يقدروا الله حق قدره ، لم يعظموه حق عظمته ، اذ أشركوا معه أى شىء وغيرهم لم يقدروا الله حق قدره اذ عصوه واتبعوا أهواءهم •

ومما أشار فيه الكاتب الى الآية من القرآن الكريم ذاكرا بعضا من ألفاظها قوله : « لقد عرضت الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان » يشير الى قول الله تعالى : « انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال

---

(٤٤) سورة الأحزاب الآية ٧٢ •

فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا »(٤٥)

واشارته الى هذه الآية هنا ليقول للمتلقى ، منذ الآن : ستسأل عن هذه الأمانة التى هى : التكاليف والأمانات الخاصة بالعباد ، التى عرضت على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها اشفاقا من ألا تقوم بها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما لنفسه جهولا بالذى فيه الحظ له(٤٦) .

هذا مثال يوضح مدى استعانة الكاتب بلغة القرآن الكريم وتوظيفها لنقل الفكر والايحاء والشعور الذى يريد أن يعبر عنه الكاتب فى وصف مشهد من مشاهد القيامة وتعجز أى لغة عن أن تصوره كما صوره القرآن الكريم وعن أن توصل معانيه الى كل المخاطبين على اختلاف معارفهم وثقافاتهم وعن أن تؤثر فى المتلقى على اختلاف أجناسهم ولغاتهم كما فعل القرآن الكريم فى كل ذلك مع العرب وهم من هم فى الفصاحة والبلاغة كما فعل فى الوليد بن المغيرة وأضرابه من كفار مكة(٤٧) وكما فعل مع قساة القلوب منهم فأحالهم الى مخلوقات تذوب رقة ورحمة وحنانا كما فعل فى عمر ابن الخطاب رضى الله عنه بعد اسلامه(٤٨) بك وكما فعل مع أهل

---

(٤٥) أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى ـ المصحف المفسر ـ دار الغد العربى ص ٤٢٧ .

(٤٦) السيرة النبوية لأبى محمد بن عبد الملك بن هشام جـ ١ ص ٢٨٠ ، ٣٠٥ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ .

(٤٧) المرجع السابق ١/٣٥٤ ـ ٣٥٩ .

الكتاب الناطقين باللغة العربية الذين سمعوا ما أنزل الى الرسول من كلام الله فكانت أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، أولئك هم القسيسون والرهبان من النصارى الذين قال الله فيهم : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون .

واذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين »(٤٩) بل وكما فعل مع غير هؤلاء وأولئك ممن لا يعرفون شيئا عن اللغة العربية وأسرار تراكيبها ولكن حين سمعوا آيات الله تتلى استولى على قلوبهم وأسماعهم نغمة وايقاعه ، وجرسه ، فمس شغاف القلوب . وأخذ بالمسامع والأبصار نحوه ونحو الناطقين به كما يحكى الأستاذ المرحوم سيد قطب قصة تلك المرأة اليوغسلافية التى استمعت الى الأستاذ سيد قطب وهو يخطب الجمعة ، للمسلمين ويؤمهم للصلاة على ظهر سفينة كانت متجهة الى نيويورك ، والذى لفت أنظار المشاهدين من ركاب السفينة من غير المسلمين وهو مشهد المسلمين أثناء سماع الخطبة والصلاة، لكن الذى مس شغاف المرأة اليوغسلافية وأخذ بلبابها هو صوت الخطيب وهو يرتل ألفاظا من نوع خاص تختلف عن الألفاظ التى كان يتكلم بها ، كانت تلك الفقرات من القرآن الكريم(٥٠) الذى أنزله الله بلسان عربى مبين ، ولغته ذات (الايقاع الموسيقى الناشىء من

---

(٤٩) سورة المائدة الآيات ٨٢ ، ٨٣ .

(٥٠) راجع سيد قطب : فى ظلال القرآن الكريم ٣/١٧٨٦ بتصرف دار الشروق ط ١٢/ سنة ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م .

تخير الألفـاظ ونظمهـا فى نسـق خاص ثم التنسـيق فى تآليف العبارات)(٥١) وهذا الايقاع الموسيقى متعدد الأنواع يتناسق مع الجو ويؤدى وظيفة أساسية فى البيان ، وهو اشعاع للنظم الخاص فى كل موضع ، وتابع لقصر الفواصـل وطولها ، وتابع لانسـجام الحروف فى الكلمـة المفردة ، ولانسـجام الألفـاظ فى الفاصـلة الواحـدة »(٥٢)

وانسجام الفواصل فى السورة ، وتناسبها مع المعنى وايحاءاته وظلاله ، ذلك أن « القرآن الكريم معجز اعجازا مطلقا يلمسه الخبراء فى فن التعبـير ، وفى النظم والتشريعات والنفسـيات وما اليهـا ، والذين زاولوا فن التعبير والذين لهم بصر بالأداء الفنى يدركون أكثر من غيرهم مدى ما فى الأداء القرآنى من اعجـاز فى هذا الجانب • والذين زاولوا التفكير الاجتماعى والقانونى والنفسى والانسانى بصفة عامة يدركون أكثر من غيرهم مدى الاعجاز الموضوعى فى هذا الكتاب أيضـا »(٥٣) •

والاعجاز فى نظم القرآن الكريم راجع الى الدقة فى مطابقـة اللفظ للمعنى التى هى مرد البلاغة الكلامية بحيث لا نستطيع أن نميز أيهما تابع الآخـر ، هل اللفظ ظل للمعنى يحكيه ويجسده ويحـده ، أو المعنى ظل للفظ يحييه ويحركه ويجمله ؟ فلا نفهم الا أنهما متمازجان

---

(٥١) راجع سيد قطب / التصوير الفنى فى القرآن الكريم ص ٧٤ بتصرف •

(٥٢) راجع بتصرف ص ٨٦ المرجع السابق •

(٥٣) سيد قطب : فى ظلال القرآن ٦/١٧٨٥ وما بعدها •

يتعاوران الدلالة على أخص وأدق ما فى كل منهما من الملامح والسمات، وكأنهما فى هـذا الابداع الالهى العجيب متوالدان من بعضهما ، وكل منهما ميـزان للآخـر لا يتـراءى بينهما أى أثر من آثار التفـاوت والاختلاف..(٥٤) وهو أساس الاعجاز القرآنى والمصدر الأول لمختلف مظاهر الاعجاز المتعلقة بالأسلوب والمفردة القرآنية ، والجملة وصياغتها، والنغم القـرآنى ، والبـلاغة فى روائع التشـبيهات والاستعارات والكنايات »(٥٥) مما يحتاج بيـانه الى مقام غير هـذا ..

فلنعد الى مسرور ومقرور واللغة التى استخدمها الكاتب لتوصيل رؤيتـه للمتلقى ، نجد أنه بجوار لغة القرآن الكريم التى استعان بها الكاتب كانت هناك لغة الحديث القدسى والحديث النبوى يصور بهـا المشاهد التى عنيت السنة النبوية بتوضيحها ، فمثلا الله يقول فى كتابه العـزيز : « ولـه الكبـرياء فى السموات والأرض وهو العـزيز الحـكيم »(٥٦) .

توضح السنة هـذا المعنى فى الحـديث القـدسى الذى يرويه سـيدنا رسول الله ﷺ عن رب العزة والذى يقول : « الكبرياء ردائى

---

(٥٤) راجع د/ محمود السيد شيخون : الاعجاز فى نظم القرآن ص٦٢ ـ ٦٥ الطبعة الأولى سنة ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م مكتبة الكليات الأزهرية فيما نقله عن « من روائع القرآن » للسيوطى ص ١٣٩ ، ١٤١ ط / دمشـق سنة ١٩٧٠م .

(٥٥) راجع د/ محمود السيد شيخون : الاعجاز فى نظم القرآن من ص ٦٢ الى ص ١١٦ .

(٥٦) سورة الجاثية الآية ٣٧ .

والعظمة ازارى فمن نازعنى واحدا منهما أدخلته جهنم »(*) .

يأخذ الكاتب معنى هـذا الحديث وبعضا من ألفاظه ليستعين بها فى محاكمة مسرور واتهامه باضفائه صـفات الجلالة من الألوهيـة والكبرياء والعظمة على نفسه حيث يقول « بدأت محاكمة مسرور ، قيل له : أنت متهم بتأليه نفسك ، وافساد شـعبك ، لقـد زورت ارادتهم ومحوتها ، ولم تكن تسمح لمن يعارضك أن يعارضك : وهـذا كبرياء وعظمة والكبرياء رداء الله والعظمة ازاره ، من نازعه واحدا منهما ألقاه فى جهنم »(**) .

وللكاتب حين يستخدم لفظ الحديث فى السياق ليقيم الحجة على المتهم ، وحين يضع المتلقى نفسـه موضع المتهم يجـد أن الأدلة قوية فيبادر من الآن الى أن يجنب نفسه أن يقف موقفا كهذا .

وفى مشهد آخـر يستخدم الكاتب معنى حديث آخـر لكن فى محاسبة مقرور حيث يقول على لسان مقرور : « ها أنا(***) يا مولاى قـد جئتك بذنوبى وخطاياى ، ولكنى لا أجـدها فى كتـابى .. قال الحق : يا عبدى أنا سترتها عليك فى الدنيا .. وأنا أغفرها لك اليوم .. قـد قبلنا توبتك حين تبنا عليك لتتوب ، وغفرنا لك كبير جرمك وكثير سـيئاتك ، وتقبلنا منك يسير احسانك ، ولقـد بدلنا برحمتنا ذنوبك السابقة الى حسنات حين حسنت توبتك »(٥٧) .

(*) أحمد بن حنبل : مسند الامام أحمد بن حنبل ٢/٣٧٦ المكتب الاسلامى للطباعة والنشر .

(**) أحمد بهجت : مسرور ومقرور ص ٦١ .

(***) الصواب : هأنذا وسوف ننبه على مثل هذا الخطأ الذى وقع فيه الكاتب .

(٥٧) أحمد بهجت مسرور ومقرور ص ٦١ .

وهـذا الحوار هو معنى حديث عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يدنى المؤمن من ربه » (وقال هشام : يدنو المؤمن (أى من ربه) حتى يضع عليه كنفه ، فيقرره بذنوبه ، تعرف ذنب كذا ؟ فيقول : أعرف ، يقول : رب أعرف مرتين فيقول : سترتها فى الدنيا ، وأغفرها لك اليوم ، ثم تطوى صحيفة حسناته ، وأما الآخرين ـ أو الكفار ـ فينادى على رؤوس الأشهاد : «هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين »(٥٨) .

وفى مشهد الصراط أراد الكاتب أن يوضح معنى ان الآخرة حياة سرمدية لا موت فيها فاستعان بمعنى الحديث النبوى الذى يقول قال رسول الله ﷺ : يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح فينادى مناد يا أهل الجنة ، فيشرئبون وينظرون فيقول : هل تعرفون هـذا ؟ فيقولون : نعم ، هـذا الموت وكلهم قد رآه ، ثم ينادى : يا أهل النار فيشرئبون وينظرون ، فيقول هل تعرفون هـذا ؟ فيقولون : نعم ، هـذا الموت وكلهم قد رآه فيذبح ثم يقول : يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت ، ثم قرأ وأنذرهم يوم الحسرة اذ قضى الأمر وهم فى غفلة ، وهؤلاء فى غفلة أهل الدنيا ، وهم لا يؤمنون »(٥٩) .

---

(٥٨) أبو عبد الله البخارى : صحيح البخارى كتاب التفسير من سورة هود عليه السلام ٧٤/٦ ، وانظر الأحاديث القدسية : شرح القسطلانى ١٢٥/٢ دار عمر بن الخطاب مؤسسة جمال بيروت ـ لبنان .

(٥٩) أبو عبد الله البخارى صحيح البخارى بشرح الكرمانى ٢٠٤/١٧ دار احياء التراث العربى بيروت لبنان طبعة أولى ١٣٥٦هـ ١٩٣٧م طبعة ثانية ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م .

فساق معنى هـذا الحديث في مشهد خيالى لكنـه كان خيـالا ساذجا حين قال وقع أمر مدهوش قبل أن يصـدر الأمر الى الخلائق أن يعبروا الصراط نادى المنادى أن أحضروا الموت .. حضر حيـوان أسود اللون يشبه الكبش أمر الصوت الجليل أن اذبحـوا الموت .. هوى الملائكة بأجنحة مثل سيوف البرق وذبحوا الموت .. سقط الموت على جنبه وبدأ يموت .. اجتاح وهو يموت .. ثم لم يابث أن تلاشى تمـاما .. قال المنادى هذا آخر عهدكم بالموت .. لم يعد هناك بعد الآن .. لقد مات الموت وأنشأناكم خلقا جـديدا لا تعلمونه ، واكنـه خلق لا يعرف المـوت »(٦٠) .

ولم يكن المؤلف يستخدم لغـة القـرآن الكريم وللسنة النبوية فقـط فى عمـله هـذا لكنـه كان يستخدم لغـة العصر الحـديث ومصطلحاته العلمية فى تلافيف عباراته المستمدة من القرآن الكريم فمثلا حين يتحـدث عن مشهد نسف الجبـال يوم القيـامة يقول : « ... وارتفعت رؤوس البشر تنظر الى الجبال ، راحت الجبال تمر مر السحاب ثم تنفجر انفجارات متتالية كل نواة صخرية كانت تنفجر كنواة ، وتؤدى الى سلسلة انفجارات نووية لغيرها ، وتحولت الجبال الى شىء يشبه الصوف المنفوش الذى تحول الى دخـان لم يلبث أن تبـدد »(٦١) .

فى هـذا المشهد تبرز الى جوار لغـة القرآن الكريم لغـة العصر الحديث ، وهو يتحدث عن الانفجارات النووية الصخرية التى أشـار اليها القرآن الكريم ووصل اليها العلم الحديث متأخرا ، وسيصل العلم الى أشياء أخرى من اشارات القرآن مصداقا لقول الله تعالى « سنريهم

---

(٦٠) أحمد بهجت : مسرور ومقرور ص ٦٩ .

(٦١) أحمد بهجت : مسرور ومقرور ص ٤٦ .

آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد »(٦٢) •

ومن التعبيرات العصرية التى استعملها الكاتب فى عمله لتوصيل ما يريد الى أذهان البعض ممن يعرفون التكنولوجيا الحديثة ومدى اتقانها للأعمال التى تؤديها ، ما نجده حين استخدم بعض هذه المخترعات الحديثة فى تصوير مشهد الحساب حين قال : « كان مشهد الحساب رهيبا » ان كتب الخلق جميعا نتحدث بالصوت والصورة عن كل ما فعلوه مثلما تسجل كاميرا الفيديو الخفية كل شىء • وحتى النوايا هى الأخرى كانت مسجلة ومكتوبة ومحفوظة ، ولم يكن الكتاب يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها »(٦٣) •

وقد لعب هذا التعبير العصرى « بالصوت والصورة » دورا مهما فى اثارة المتلقى ليتنبه الى أن أعماله التى عملها سرا وفى طى الكتمان هى مسجلة بالصوت والصورة فى صحيفة أعماله (كتابه) الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها بل ان هذا الكتاب مكتوب فيه أعماله التى لم يفعلها مطلقا ، انكه نواها وهذا ما يجعل هذا الكتاب يمتاز عن كاميرا الفيديو التى تسجل بالصوت والصورة ما يحدث وتحتفظ به •

وعلى الرغم من ذلك فان تعبير القرآن الذى لا يعلو فوقه تعبير يجعل المتلقى يخشى العاقبة أكثر وأكثر حين يعلم أن جوارحه ستشهد

---

(٦٢) سورة فصلت : ٥٣ •

(٦٣) أحمد بهجت : مسرور وغرور ص ٦٨ •

عليه ، « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ، يؤمئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين »(٦٤) .

« حتى اذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ، وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة واليه ترجعون ... »(٦٥) .

ولا وجه للمقارنة اطلاقا بين لغة الكاتب وأسلوبه أو أى كاتب مهما بلغ شأنه ولغة القرآن الكريم والسنة النبوية ، لكن على أى حال حين استعان كاتبنا بلغة القرآن الكريم والسنة النبوية رفع من قدر عمله ، وأضفى على أسلوبه يسرا ووضوحا وسهولة ، وبعدا عن التصنع والتكلف والزخرفة وبخاصة حينما كان يقتبس من القرآن والحديث لفظة أو جملة أو آية أو معنى أو طريقة فى التعبير أو التصوير . كما أن الكاتب حين فعل ذلك أخرج نفسه من دائرة كانت ستهوى به فى مهاوى الهلاك لو لم يلجأ الى القرآن الكريم والسنة يستمد المعنى واللفظ ، اذ ان أحداث عمله التى تبدأ بموت كل من مسرور ومقرور وتنتهى بدخول مسرور فى النار : ودخول مقرور الجنة ، قد قال فيها القرآن الكريم كلمته ووضحت السنة النبوية ما أجمله القرآن الكريم ، ولم ولن يبلغ تعبير مهما علا قدر قائله ما بلغ القرآن الكريم فى وصف مشاهد هذه الأحداث بالحرف واللفظ والجملة والصورة والموسيقى الداخلية والخارجية ووصف مشاهد القيامة ، ونعيم الجنة ، وعذاب النار ... الخ .

---

(٦٤) سورة النور ٢٤ ، ٢٥ .

(٦٥) سورة فصلت ٢٠ ، ٢١ .

ويبقى بعد ذلك أن نذكر أن الكاتب يعيش فى مجتمع له لغته الدارجة ويتكلم لغة أخرى غير اللغة الفصيحة التى يكتب بها ، ويعمل فى الصحافة التى تكتب بلغة هى مزيج من الفصحى والعامية ، ونشر هذا العمل فى صحيفة من هذه الصحف التى تخاطب مختلف الطوائف من الشعب بين المثقف ونصف المثقف والعامى ... الخ اذا جاءت فى ثنايا هذا العمل بعض التعبيرات الدارجة مثل قوله على لسان الوزير مخاطبا السيد الأعظم أثناء محاكمته يوم القيامة (خربت بيتنا وضيعتنا كما ضيعت نفسك)(٦٦) .

كما وقع فى بعض أخطاء لغوية قد تخفى على عامة قراء الصحف الذين كتب لهم هذا العمل مثل قوله : « ولمح فى أعماقه شعورا »(٦٧) .

والصواب « ولمح فى أعماقه شعور » وقوله : « وها هو يقف للحساب »(٦٨) . والصواب « وها هو ذا يقف للحساب » .

وقوله « ها أنا يا مولاى »(٦٩) . والصواب « هأنذا يا مولاى » وقد يكون مرد هذه الأخطاء الى القائمين على الطباعة بزيادة حرف أو اسقاط كلمة ...

لكن الذى لا نجد مندوحة فى وقوعه فى مثله من أخطاء ذلك الخطأ الفنى الذى وقع فيه حين ظهرت شخصيته فى ثنايا العمل

---

(٦٦) أحمد بهجت : مسرور ومقرور ص ٦١ .
(٦٧) المصدر السابق ص ٥٤ .
(٦٨) المصدر نفسه ص ٥٨ .
(٦٩) المصدر نفسه ص ٦٧ .

وهـذا عيب يضر بفنية العمل الفنى • مثل قوله فى مشهد العبور على الصراط : « مال كبير البصاصين عليـه وهمس : نما الى علمى أن عدد ملائكة الجحيم تسعة عشر ملائكا •

عرفت أيضا أن اسمهم الزبانية •• يبدو أن هولا مهولا ينتظرنا بعـد قليـل »(٧٠) •

فمن أين جاء هـذا العلم الى كبير البصاصين وهو فى حـال تشغله عن تذكر اسمه وعلى فرض أنه كان يعرف هـذه الأمور فـى الدنيا ، كيف وهو من زبانية الحاكم الذى لا يعرف دينـا ، ولا يعترف بدين ، انها شخصية الكاتب التى ظهرت هنا ونطقت على لسان كبير البصاصين بمـا قال •

---

(٧٠) المصدر نفسه ص ٧١ •

ثانيـا

موازنة بين « مسرور ومغرور » و « التوهم »للمحاسبى

هـذه « اللارواية » كما سماها صاحبها ، قبل أن نأخذ فى عرض ملاحظاتنا عليها نقف قليلا أمام المقدمة والاعتراف اللذين صـدر بهما الأستاذ/ أحمد بهجت عمله هـذا ليدلنا على مصـدر الهامه لهـذه « اللا رواية » اذ يقول « لقـد ولدت فى ذهنى بشكل ما بعـد أن قرأت كتاب التوهم للمحاسبى ، كنت أقاد المحاسبى اذن ، وهو شـيخ من شيوخ الصوفية ، وسيد من ساداتهم »(٧١) .

وبعـد اعترافه هـذا بأنه كان يقلد المحاسبى فى كتابه التوهم ، يحسن بنا أن نتعرف على المحاسبى ، وكتـابه التوهم لنقف على مدى تقليد الأستاذ أحمد بهجت للمحاسبى فى كتابه التوهم وتأثره به .

أما المحاسبى فقد عرفنا الأستاذ/ أحمد بهجت به بأنه شيخ من شيوخ الصوفية وسيد من ساداتهم ، وهـذا القـدر من التعـارف يكفينا ـ هنـا .

---

(٧١) أحمد بهجت ـ المصدر السابق ص ٧ مقدمة واعتراف .

عرض كتاب التوهم

أما كتابه التوهم ، وهو ما يعنينا الآن ـ فيبدؤه المحاسبى بالبسملة والحمد لله ، والثناء عليه بصفات الوحدانية ، والقهر ، والعظمة والجبروت ، ولم يصل على سيدنا محمد ـ ﷺ ـ !! ثم ذكر الهدف الذى من أجله خلق الله الانسان ، وكان فى وجهة نظره : البلوى (الابتلاء) والاختيار ، ثم توجه الى القارىء طالبا منه أن يرغب فى التوفيق من الله ويسأله العفو عن الذنوب ، ويستعين به فى كل الأمور ، ثم يعجب من حاله ، كيف تقر عينه وكيف لا يخاف وقد عصى ربه ، واستوجب بذلك عقابه وغضبه ، والموت لا محالة نازل به .. ثم يعرض عليه أن يتوهم نفسه فى صرعة الموت ، ونزعه وكربه وغصصه وسكراته ، وغمه ، وقلقه ، وفعل الملك يجذب الروح وألم ذلك ، وانتظاره للبشرى من الله عز وجل بالغضب أو الرضا ، وصورة ملك الموت من الحسن أو القبح ، ثم حال الانسان أثناء سماع البشرى بالرضا والثواب ، أو بالغضب والعقاب ، ثم ينتقل به الى القبر وهول مطلعه وسؤال الملكين ، وصورتهما من الحسن أو القبح حسب عمله وعذاب القبر بانفراجه عن النار تتأجج بحريقها ، ونعيمه بانفراجه عن الجنة بزينتها ونعيمها ، واحساس المرء حين علمه بأن ما رآه من العذاب أو النعيم هو منزله ومصيره الدائم ، ثم ينتقل الى مرحلة الفناء والبلى حيث يبلى البدن ، ولا يبلى حزن البشرى أو الفرح من الروح ، والتطلع للقيام عند النشور الى غضب الله وعقابه أو رضاه وثوابه ، ثم نداء المنادى لكل الخلائق للعرض على الله ، وأثر

هـذا النداء على الانسان في الحالين ثم انشـقاق الأرض ، وثورة الخلائق منها ، وهم مغبرون حفاة عراة أذلة ، صموت ، لا تسمع الا همس أقدامهم ثم سوق الجميع الى أرض المحشر مع الأمم كلها من الانس والجن والوحوش والسباع منكسة رؤوسـها ، والشـياطين خاشعة لذل العرض على الله ، والأنعام والهوام ، ثم تبدأ نجوم السماء في التناثر من فوقهم ، وانطماس الشمس والقمر ، واظلام الأرض ثم انشقاق السماء ، وتمزقها ، وانفطارها وذوبانها حتى تصير كالفضـة المذابة تخالطها صفرة لفـزع يوم القيـامة ، ثم نزول الملائكة بعظيم هيئاتهم ، ووقوفهم للحشر ، ثم ازدياد حر الشمس ، ودنوها من رؤوس الخلائق قاب قوس أو قوسين ، ولا ظـل لأحـد الا ظـل عرش رب العالمين ، وفيضان العرق سائلا مكونا مستنقعات على وجه الأرض يكون الناس فيـه على قـدر مراتبهم ومنازلهم ، ووقوف الناس على هذا الحال دهرا طويلا ، ثم فزعهم الى آدم ونوح وابراهيم وموسى وعيسى وكل يجيب بأنه مشغول بنفسه ، فيأتون النبي محمدا ﷺ يسـألونه الشفاعة فيجيبهم ، ويجيبه الله بتعجيل عرضهم والنظر في أمورهم ، ثم يؤتى بالنار مضطربة وجلة أن يكون الله عز وجل خلق خلقا يعـذبها به ، والخلائق يبكون عنـد زفيرها ، وشهيقها ، وكل ينادي : نفسي نفسي ، والنار تزفر مرات متتالية ، حينذاك تبلغ قلوب الظالمين لدى الحناجر كاظمين ويبـدأ الحساب بالرسل • ماذا أجبتم ؟ فيقولون من شدة الذهول : « لا علم لنا انك أنت علام الغيوب »(٧٢) •

---

(٧٢) سورة المـائدة الآية ١٠٩ •

وهم من هم ، فكيف بغيرهم ، « وترى كل أمة جاثية » (٧٣) .

ومن شدة الفزع والهول يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ، ويتبرأ منه الولد والوالد ، والأخ والصاحب والعشائر ، فلا يلام على ذلك ولا يلامون ، وسر الفرار مخافة أن يتعلق أحدهم بالآخر لتبعة له عليه ، فيأخذ منه ما هو بحاجة اليه ، وبينما الموقف كذلك يرتفع عنق من النار ينطق بلسان فصيح باسم من وكلت بأخذهم من الخلائق بغير حساب فيلتقطهم لفظ الطير الحب ، ثم تنطوى عليهم فيلقون فى النار فتبتلعهم ، ثم يخنس بهم فى جهنم .

ثم ينادى مناد : سيعلم أهل الجمع من أولى بالكرم فينادى بالحمادين الله على كل حال ، ثم أهل قيام الليل ، ثم من لم تشغلهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله . فيسرحون جميعا الى الجنة تباعا ، ثم ثم يبدأ حساب الخلق فتتطاير الكتب فى الأيمان والشمائل وتنصب الموازين ثم يؤتى بالزبانية عليهم ثياب من نار ، وبأيدهم مقامع من حديد ، وينادى كل انسان باسمه فلا يقوم غيره ، ويأخذونه حتى يقف بين يدى رب العالمين ليقرأ صحيفة أعماله ويسأله عن شبابه وعمره وماله وعلمه ، واما أن يتلاقاه الله برحمته ، ويتطول عليه بجوده ، واما أن يناقشه الحساب فيأمر به الى الهاوية وسوء المصير ، ثم يكون المرور على الصراط المضروب فوق متن جهنم بدقته ودحوضه ، وهو تخفق بأمواجها من تحته ، وزبانيتها يرمون أهل النار بكلاليب فتجذبهم ، وتبادر شرر النار الى هاماتهم فتتناولها .

ثم تجذب هاماتهم الى جوفها وهم ينادون ويصرخون ، والله ينادى النار : هل امتلأت ؟ فتقول : هل من مزيد . فينفطر بدن

---

(٧٣) سورة الجاثية الآية رقم ٢٨ .

العاصى ، ويتساقط لحمه وتبقى عظامه ، ثم تسلط النار على ما فى جوفه فتأكله ، ويتذكر شراب الدنيا فيتناول الاناء من يد الخـــازن الموكل بعذابه فيقربه الى وجهه فيشربه ــ ثم يتجرعه فينسلخ حلقــه ، ثم يصل الى الجوف فيقطع الأمعاء فيبادر الى حياض الحميم ليتبرد بهــا ، فاذا غمس فيها تساقط من قرنه الى قدمه ، فيبادر الى النــار رجاء أن تكون هى أهــون عليــه : فيشتد عليه حريقها ، فيرجع الى الحميم ، وهكذا !

ثم يتذكر الجنة ونعيمها فتشتد حسراته ، ثم يتذكر أقرباءه فى الجنــة فيناديهم فيجيبوه بالخيبة والغضب عليــه لغضب الله عليــه . فيفــزع بالنــداء الى الله أن يرده الى الدنيا ، فيمكث عنــه دهــرا طويلا لا يجيبــه هوانا به ، ثم يرده بالخيبــة منه (اخسـئوا فيهــا ولا تكلمون) (٧٤) .

ويزيده اياسا وحسرة حين يطبق النار عليــه وعلى أعدائه أبدا ، أما ان كان من أهل العفو من الله والتجاوز عن سيئاتهم ، فحاله أثناء المرور على الصراط أن نوره بين يديه وعن يمينه وكتابه بيمينه ، أبيض الوجه مع زمر العابدين ووفود المتقين يقولون : « ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا انك على كل شىء قــدير » (٧٥) . حتى يصل الى الجنــة فيغتسل فى عين من عيونها ليدخل الجنة فى أحسن صورة ، وأنضر وجــه ، ثم يقصد الى العين الأخرى ، فيناول بعض آنيتها لم يــر أحسن منها ، ولا أحسن من الشراب الذى فيها ، ليطهر جوفه من كل غل تمهيدا لدخول الجنة ، واذا نسيمها وأريجها المختلفة ، وأرياح طيب

---

(٧٤) سورة المؤمنون الآية ١٠٨ .

(٧٥) سورة التحريم الآية ٨ .

ثمارها وأشجارها ، وحسن قصورها ، وتأسيس بنيانها من الزمرد والياقوت الأحمر ، والدر الأبيض ، وحجب الله التى للمؤمن فيها الزيادات ، والنظر الى وجه الله ، فلو مات فرحا لكان ذلك يحق له ، ثم يفتح له الأبواب ملائكة ضاحكين له لأول مرة منذ أن خلقوا قائلين له ولغيره من المؤمنين : « سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين(٧٦) فاذا جاوز الباب ودخل الجنة ووضع قدمه على تربتها فاذا هى مسك مصبوب على أرض من فضة والزعفران نابت حولها ، ثم ينادى فى أزواجه وولدانه وخدمه وغلمانه وقهارمته اعلاما بقدومه فيستبشروا كما يبشر أهل الغائب ، والزوجات من الحور العين مقصورات فى الخيام ، يرسلن الخدم يستعجلن رؤيته ، فاذا دخل باب قصره نادته كل واحدة منهن ، وهى من هى فى الحسن والجمال والبهاء والروعة والزينة .... : يا حبيبى ما أبطأك علينا ؟ وبعد أن ينعم بهن ، وينعمن به ، يقلن جميعا بأصواتهن : نحن الراضيات فلا نسخط أبدا ، ونحن المقيمات فلا نظعن أبدا ، ونحن الخالدات فلا نبيد أبدا ، ونحن الناعمات فلا نبؤس أبدا ، طوباك ، أنت لنا ، ونحن لك ثم يخلد الى حوراء منهن .. يرى وجهه فى نحرها ، وهى تنظر الى وجهها فى نحره ، كدهما فى أبهى زينة .

والخدم والوالدان يحفون ببيته ، يقدسون ربهم ، وقد اطلعوا على ضمير قلبه فسارعوا الى كل ما حدث به نفسه من كرامة وسرور وأمانى ، وزوجته تنادمه ويادمها ، والملائكة يأتون اليه بالتحف والألطاف من عند الله لا يدخلون عليه الا باذنه وهو فى شغل (فى شغل فاكهون)(٧٧) .

---

(٧٦) سورة الزمر الآية ٧٣ .

(٧٧) سورة يس الآية ٥٥ .

(واذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا) (٧٨) ويبلغونه سلام الله ، ويعطونه الهدايا والتحف وينصرفون ، ثم تطلبه زوجة أخرى : يا ولى الله ، أما لنا منك دولة ؟ أما آن لك أن تنظر الينا وهى ممن قال الله فيها : « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين »(٧٩) . فيسير اليها فيتمتع بها ، ثم تناديه أخرى ، وهى من قال الله فيها : « ولدينا مزيد »(٨٠) .

وهو فى كل ذلك معافى من كل آفة ، مبرءا من كل نقص ، طاهرا من كل دنس ، خالدا لا يموت ، لأن الله قد ذبح الموت أمامه وأمام الخلائق كلها ، ولا يخاف سخط الله أبدا بعد رضاه عنه ، ثم تكون النعمة التى لا تعدلها نعمة من كل ما رأى وسمع أن الله يستزيرهم فعليهم أن يزوروه ، فتقبل الملائكة عليهم بالنجائب البخت المخلوقة من الياقوت ، مزمومة بسلاسل من ذهب : لا تروث ولا تبول ، ذوات أجنحة عليها خز أحمر من خز الجنة ، فيثب عليها ، ويسير الجميع صفا واحدا ، كل رفيق مع رفيقه ، يلبسون لباسا متحد اللون ، ويركبون نجائب أيضا متحدة اللون حتى يصلوا حيث أراد الله ، فتقوم الملائكة على خدمتهم ، فتضع الصحاف من الذهب فيها الأطعمة ، وطرائف الفاكهة مما لم يحسنوا أن يتمنوه حتى اذا فرغوا من أكلهم . أمروا بالشراب ، فتأتى الملائكة بأكواب الدر وكؤوس الياقوت فيها الخمر ، والعسل ، والماء ، والألبان ، ثم يأمر الجليل ملائكته بكسوتهم ، فيلبسونهم من الحلل التى لم يلبسوا مثلها فى الجنة ، أما الطيب

---

(٧٨) سورة الانسان الآية ٢٠ .

(٧٩) سورة السجدة الآية ١٧ .

(٨٠) سورة ق الآية ٣٥ .

فتحمله السحب فتمطره عليهم فيغرقون فيه ، ثم ترفع الحجب فيرون من ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، فلما سمعوا تحيته لهم بالسلام ، وترحيبه بهم وطلبه أن يتمنوا عليه ، يطلبون الاذن بالسجود له ، فيقول لهم : « ارفعوا رؤوسكم ليس هذا حين عمل ، هذا حين سرور ونظر ، ثم يؤذن لهم بالانصراف الى ما أعد لهم من كرامته ، ونعيمهم ، ولذاتهم ، فانصرفوا فى أحسن صورة بعد أن ضاعفت رؤيتهم لربهم حسنهم وجمالهم ، وحين عادوا الى أزواجهم ازددن بهم حبا وعشقا ... فاذا اشتاقوا الى منادمة اخوانهم ركبوا النجائب والخيل يتزاورون ، فيلتقون على أنهار الجنة من الخمر والسلسبيل ، والتسنيم ، يشربون ، ويناديهم ربهم : « كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية »(٨١) .

ويختم « المحاسبى » كتابه بهذا الخطاب الى القارىء قائلا : فكن الى ربك مشتاقا واليه متحببا ، ولما حال بينك وبينه قاطعا ، وعنه معرضا ، وابتهل فى الطلب الى الله بفضله واحسانه ، وأن لا يقطع بك عنهم ، وبالله التوفيق واليه المصير ، والجنة مثوى المؤمنين وثواب المتقين ، وسرور المحزونين ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم »(٨٢) .

ومن قراءتنا لهذا الكتاب نستطيع أن نقول : انه رسالة وعظية بنيت على أساس دينى يقوم على الخوف والرجاء أو الترغيب والترهيب، وقد نهج الوعاظ والقصاص المسلمون هذا النهج فى مواعظهم

---

(٨١) سورة الحاقة الآية ٢٤ .

(٨٢) أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبى البصرى – كتاب التوهم ص ٦٣ بدون .

وأقاصيصهم : غير أن أبا عبد الله (المحاسبى) (نحا فى كتابه الوعظى منحى طريفا ، فلم يقتصر على ما ورد من الأخبار فى الخوف والرجاء كما فعل غيره ، بل استعمل خياله فى وصف الجنـــة والنار ، وشعور أهلها وأسلس لخياله القياد فتخيل ما تخيل وصور ما صور فجـــاءت رسالته رواية رائعة لكاتب فصل مواقفها وصقل لغتها وجمل مناظرها حتى يؤثر فى نفوس القارئين والسامعين أكبر الأثر وأبلغه)(٨٣)(*)٠

---

(٨٣) د/ محمد على دقة ــ المحاسبى قبل المعرى ودانتى ص ١٢٧ مجلة العربى عدد ٤١٣ أبريل ١٩٩٣م ــ الذى أخذ كلمات الدكتور // أحمد أمين، التى وضعتها بين معقوفين والتى يعبر فيها عن رأيه فى كتاب التوهم ومؤلفه والمذكورة ص « و » ، من كتاب التوهم للمحاســبى الذى هو بين يدى الآن ، ولم يشر الى ذلك الأخـذ ، كمـا أنه تصرف فى رأى الدكتور أحمـد أمين بالحذف والزيادة حتى كاد أن يفقده صورته التى أرادها صاحبها « وحتى تتضح الحقيقة وللأمانة العلمية هأنذا أنقل رأى الدكتور أحمد أمين » ، وقد قال الدكتور أحمد أمين عن كتاب التوهم ومؤلفه : نحا فيه منحى طريفا يدل عليه اسمه فلم يقتصر على ما ورد من الأخبار فى الخوف والرجاء كما فعل غيره ، بل استعمل توهمه ــ وبعبارة أخرى خياله ــ فى وصف شعور أهل الجنة وأهل النار، وما يلقون من سعادة وشقاء وعذاب ، وأسلس لخياله القيادة فتخيل ، وصور ما صـــور ، فهى لوحة جميلة لفنان أجاد ألوانهـا أو رواية رائعة لكاتب جمل منظرها ، وفصل مواقفها ، وصقل لغتها ، حتى يؤثر بالحقيقة التى تتضـمنها فى نفوس القارئين والســامعين أكبر الأثر وأبلغه ص « و » الحارث المحاسبى ــ كتاب التوهم ــ بدون والعله قد يتضح الآن أن د// محمد على دقة لم يكتف بعدم نسبة هذه الكلمات الى صاحبها وانما تصرف فيها بما أخل بمضمونها حيث أضاف وحذف وقدم وأخر ، فالدكتور أحمد أمين يقول : ان المحاسبى (استعمل توهمه) وبعبارة أخرى (خياله)

والكتاب على هـذا النحو يعوض الحياة الأخرى فى العـالم الآخـر ، والتى تبدأ بالموت وتنتهى بدخول أهل الجنة ينعمون فيها بما أعـد الله لهم مما لم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب

ترى د/ محمد على دقة يحذف كلمة توهمه ويقول (بل استعمل خياله) وكان د/ أحمد أمين يوافق واقع الحال فى قوله اذ أن المحاسبى فى كل فقرات كتابه يقول : توهم كذا .. ولم يقل أبدا : تخيل كذا ، والدكتور أحمد أمين أستخدم كلمة الخيال تجوزا حين قال : (وبعبارة أخرى خياله) .

كما أن الدكتور : أحمد أمين يقول : (فى وصف شعور أهل الجنة وأهل النار ، وما يلقون من سعادة وشقاء وعذاب) اذا بالدكتور محمد على دقة يوجز العبارة على النحو التالى فيقول (فى وصف الجنة والنار وشعور أهلها) وهذه العبارة وان كانت تؤدى نفس المعنى الا أن عبارة د/ أحمد أمين تركز على شعور أهل الجنة وشعور أهل النار أكثر مما تركز على وصف الجنة والنار كما دلت عبارة د/ محمد على ، ووصف الشعور هو الذى يحتاج الى التوهم لأنه غير مرئى ، ولم يبح به أصحابه ، بخلاف وصف الجنة فهى مشاهد تدرك بالبصر ، وان كنا لم نرها الا أن النصوص الدينية أفاضت فيها ، ود/ أحمد أمين يقول « فهى لوحة جميلة الفنان أجاد ألوانها أو رواية رائعة لكاتب جمل مناظرها وفصل مواقفها وصقل لغتها حتى يؤثر بالحقيقة التى تتضمنها فى نفوس القارئين » اذا بالدكتور / محمد يحذف عبارة (فهى لوحة جميلة أجاد ألوانها) ويقول : (فجاءت رسـالته رواية رائعه الكاتب) ويقدم بعض العبارات على بعض فيقول : (فصل مواقفها وصقل لغتها وجمل مناظرها) ثم يحذف من عبارة د/ أحمد أمين بعضها وهو قوله: (بالحقيقة التى تتضـمنها) . ويقول : (حتى يؤثر فى نفوس القارئين والسامعين ، ولا شك أن حذف هـذه الجملة يخل بالمعنى ويضـيع كثيرا من مصداقية العبارة وأثرها فى التلقى .

بشر ، ودخـول أهل النـار النـار وأنواع العـذابات التى يلقونها ، وخلودهم فيهـا .

وعلى الرغم من أن المحاسبى استقى أفكار كتابه وأحـداثه من الكتاب والسنة الا أنه آثر أن يطلق عليـه « التوهم » ولعل ذلك راجع الى أنه اعتمد فى عرض أفكاره وأحداثه على التوهم ، فهـو يقول : توهم نفسك وقـد جاءك ملك الموت .. الخ .

وحتى اذا أخطأ فى عرض فكرة من أفكار كتـابه أو حـدث من أحداثه لا يقع تحت طائلة العقاب لخطئه فيما هو معلوم من الكتـاب والسنة ، ويكون عذره أنه يتوهم وقوع هـذه الأمور عمليا .

والكتاب على هـذا النحـو قـد اثار الملكة الابداعيـة عنـد الأستاذ/ أحمد بهجت وألهمه فـكرة هـذا العمل الفنى (مسرور ومقرور) وهـذا ليس غريبا فى مجـال الابداع ، لكن الأمر ليس بهذه السهولة ، « فاجابات المبـدعين عن عمليـه الابداع توضح ان المبدع حين يبدع عملا فنيا يمر بلحظات تلق أو انطلاق يكاد يختفى فيهـا كل أثر لبذل الجهـد ، ثم يمر بلحظات أخرى ملؤها المقـاومة والتنقيب ، وقـد تنبه (دى لاكروا) الى هـذا الاختلاف بين لحظات الابداع فقال : ان للالهام وجوده ، لكنه لا يكفى لتفسـير الابداع ، وليست ميزة الفنان أن يقف مسلوب الارادة أمام وابل الالهام ، بـل لعل ميـزته الكبـرى أنه يسـتطيع أن يمسك بهـذه الاشراقات ويتأملها »(٨٤) .

---

(٨٤) راجع د/ مصطفى سويف : الأسس النفسية للابداع الفنى فى الشعر خاصة ص ١٨٨ دار المعارف الطبعة الرابعة – منشورات جماعة علم النفس التكاملى .

فالذى لا شك فيه أن كتاب التوهم قد ألهم الأستاذ/ أحمد بهجت فكرة العمل الفنى جملة ، لكن التفصيلات الدقيقة الخاصة بالعنصر القصصى ، والتكتيك الفنى ، والصور الفنية واللغة ، والتشبيهات ، والمجازات ... الخ هى من عمل الأستاذ/ أحمد بهجت ، ولكن كل هذا لا يمنع أنه كان معجبا بالمحاسبى نفسه ، وبكتابه أيضا ، وقد سجل اعجابه بالمحاسبى حين قال عنه : « كنت أقاد المحاسبى اذن ، وهو شيخ من شيوخ الصوفية ، وسيد من ساداتهم أكاد ألمس فيما أقول تعلقا بملابس عاشق عبقرى وثمة ادعاء يتوارى — وان ظهر — بأننى على مثاله أو طريقته .. أعترف أننى أتشبث بثياب المحبين . لسنا مثلهم ولكنا أحببناهم لحبهم للحقيقة »(٨٥) .

أما اعجابه بكتابه التوهم ، فتجلى فى تأثره به فى كثير من الصور التى توهمها أو تخيلها المحاسبى فى كتابه ، والمصادر التى استقى منها هذه الصورة مع الفارق أن المحاسبى كان غالبا ما يدل القارىء على مصدر هذه الصورة فيستدل بآيات من القرآن الكريم وأقوال المفسرين فى تفسيرها ، أو بأحاديث نبوية ، أو أقوال مأثورة توضح ما استند اليه — المحاسبى — فى توهمه أو تخيله ، فمثلا حين يتحدث عن يوم الحشر وانشقاق الشمس ثم تمزقها وانفطارها ثم ذوبانها حتى تصير كالفضة المذابة تخالطها صفرة لفزع يوم القيامة ، يستشهد على صحة ما توهم أو تخيل بما ورد من آيات القرآن الكريم وأقوال المفسرين فى تفسيرها فيقول : « ... فأذابها ربها حتى صارت كالفضة المذابة تخالطها صفرة لفزع يوم القيامة » ، كما قال الجليل الكبير : « فصارت وردة كالدهان »(٨٦) .

---

(٨٥) د/ أحمد بهجت — مسرور ومقرور ص ٧ .

(٨٦) الرحمن بعض آية ٣٧ .

« ويوم تكون السماء كالمهل ، وتكون الجبال كالعهن »(٨٧) .

فقال المفسرون : ان المهل هى الفضة المذابة يخالطها صفرة ، وان العهن هو الصوف المنفوش ، وقوله : « وردة كالدهان » كلون الفرس الورد »(٨٨) .

كما بنى تخيله لبلوغ الناس فى العرق على قدر مراتبهم ومنازلهم على حديث عن سيدنا رسول الله ﷺ حيث يقول : « ثم ازدحمت الأمم وتدافعت فدفع بعضها بعضا ، وتضايقت فاختلفت الأقدام وانقطعت الأعناق من العطش واجتمع حر الشمس ووهج أنفاس الخلائق وتزاحم أجسامهم ، ففاض العرق منهم سائلا حتى استنقع على وجه الأرض ثم على الأبدان على قدر مراتبهم ومنازلهم عند الله عز وجل بالسعادة والشقاء ، حتى اذا بلغ من بعضهم العرق كعبيه ، وبعضهم حقويه ، وبعضهم الى شحمة أذنيه ، ومنهم من قد كاد يغيب فى عرقه ، ومن قد توسط العرق من دون ذلك منه — عن عمير بن سعيد قال : جلست الى ابن عمر وأبى سعيد الخدرى ، وذلك يوم الجمعة ، فقال أحدهما لصاحبه : انى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أين يبلغ العرق من ابن آدم يوم القيامة ؟ فقال أحدهم : شحمة أذنيه ، وقال الآخر : يلجمه ، فقال ابن عمر : هكذا ، وخط من فيه الى شحمة أذنيه فقال : ما أرى ذاك الا سواء »(٨٩) .

وأورد المحاسبى قولا مأثورا وأحاديث أخرى فى هذا المعنى(٩٠) .

---

(٨٧) سورة المعارج الآية ٨ ، ٩ .
(٨٨) المحاسبى — التوهم ص ٦ .
(٨٩) المحاسبى — التوهم ص ٨ .
(٩٠) المصدر نفسه ص ٩ .

أما أحمد بهجت فقد اتفق مع شيخه المحاسبى فى أنه استقى معلوماته فيما يتعلق بالموت ، والحياة بعده ، ومشاهد فناء العالم ، ونهوض الموتى من قبورهم ، ومشاهد القيامة ، ووصف الجنة ، والنار ... استقى هذه المعلومات مما ورد فى القرآن الكريم والسنة النبوية ، يستلهم النصوص آنا ، وروحها فى آن آخر ، ولا يجد القارىء جهدا فى معرفة هذه المواضع وكيف وظفها الكاتب لتفى بالمعنى المراد ، لكنه كان حين يستعمل خياله لم يفعل كما فعل شيخه المحاسبى بأن يذكر الآية وأقوال المفسرين فيها أو الحديث النبوى أو القول المأثور ، ليكون دليلا على صحة توهمه ، لم يفعل الأستاذ أحمد بهجت ذلك بل كان حين يستعمل خياله يصف ويفصل ما أجمله القرآن الكريم فى مواضع متفرقة ، ويخرجه فى صورة كلية مركبة ، كقوله يصور مرحلة الاحتضار الأخير للكون : « حين تكامل المشهد واستوى الجميع فى موقف الحشر » بدأ الكون يدخل مرحلة احتضاره الأخير .. بدأت الأرض تدك دكا ، وتناثرت نجوم المجرات من فوقها ، وطمست الشمس ، وبدأت تبرد وتحول لونها من الأصفر الوهاج الى اللون الأحمر ثم دلف اللون الأحمر الى اللون الأزرق ، ثم ذابت الزرقة فى لون رصاصى سرعان ما تحول الى السواد .. وراحت الشمس تصدر أصواتا ممزقة ، وهى تنفجر محتضرة فى سماء يوم الحشر : وبرق بصر الخلق ثم ساد الكون كله ظلام دامس .. انطفأت نجوم المجرات ، وهلكت الشمس وطمس القمر ، وساد الظلام »(٩١) .

وكذا فى تصويره لتبدل الأرض واشراقها بنور الله حيث يقول : وذابت مادة الأرض ووقف المبعوثون من فوقهم على أرض المحشر ..

---

(٩١) أحمد بهجت — مسرور ومقرور ص ٥٣ .

تمت أرض بلون الفضة الشاحبة لم يرتكب أحد فوقها خطيئة » واشرقت الأرض بنور ربها بعد أن قضت فى الظلام وقتا خرج على حدود الوقت أضىء المشهد بنور جديد ليس هو ضوء الشمس ولا نور القمر ، ثمة نور لا عهد للخلق به ، نور الهى .. لم يكد المشهد يضىء بهذا النور المقدس حتى فقد مسرور بصره أعمى نور الله بصره ، كما أعمى أبصار الكافرين ، وأراد مسرور أن يصرخ من الفزع ، ولكن شيئا داخله دفن صرخته فى صدره فترددت مثل عواء مذبوح فى أعماق روحه .. أيقن بالهلاك .. وتمتم لنفسه مبتسما : « رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى »(٩٢) .

اعتمد الكاتب فى وصف المشهد وتجميع أجزائه فى خياله الذى بدأ انطلاقته من القرآن الكريم ، ثم دفعه ايمانه أن يتصور المشهد كما ترسب فى أعماقه فهى حقيقة مستمده من القران الكريم ، ولكن ليست بهذا التفصيل والتجسيد الذى رسمه الكاتب من وحى ايمانه فكأنه يرى ويسمع .

ولعل الذى حدا بالكاتب أحمد بهجت الى أن يخالف شيخه المحاسبى فى عدم الاستشهاد بالآيات القرآنية وأقوال المفسرين فيها ... ليدلل على صحة تخيله أنه بصدد عمل فنى يعتمد على الخيال والتصور ، وليس بصدد كتاب علم يعتمد على الأدلة والبراهين، حتى اذا أخطأ كانت خطأته شطحة خيال ، فلا يحملها للنص الايمانى .

وأحيانا أخرى كان يجنح بالأستاذ/ أحمد بهجت الخيال ، فيقيس

---

(٩٢) المصدر السابق ص ٥٦ والآيتان من سورة طه رقم ١٢٥،١٢٦

ما سيكون فى الآخرة على ما يجرى فى الدنيا ، وذلك حين يعجز الحاكم الصغير عن علاج أمر من الأمور فيرفع الأمر برمته الى من هو أعلى منه ، فمثلا يقول فى محاكمة مسرور : « كان مسرور مصرا على الانكار منهمكا فى الجدال عن نفسه ، فلما رأى ملائكة الحساب اصراره أحالوا قضيته برمتها الى الله »(٩٣) .

وتلك شطحة خيالية من الكاتب أحمد بهجت .

وقد بدأ الكاتب أحمد بهجت قصته بأحداث فى الدنيا ، ولم يفعل كما فعل شيخه المحاسبى الذى رسم صورة للآخرة فحسب ، ذلك أن الكاتب أحمد بهجت كان يكتب عملا فنيا فى أسلوب قصصى روائى ، والرواية تتألف من أحداث مترتب بعضها على بعض ، فلابد أن يكون للأشخاص الذين قاموا بهذه الأحداث وجود فى الدنيا حتى يترتب الاجزاء على هذه الأعمال الدنيوية فى الآخرة وبذلك يكون قد أعطانا الاقناع الفنى زيادة على التنويه بأن الله عادل لا يؤاخذ الناس بغير جريرة اقترفوها فى الدنيا ، وهذا هو هدفه وهو بيان أن الناس سيجازون على أعمالهم فى الدنيا بثواب أو عقاب فى الآخرة .

أما المحاسبى فكان هدفه شرح الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والقدسية التى تتحدث عن العالم الآخر بطريق المشاهد التى سجلها فى كتابه « التوهم » .

---

(٩٣) أحمد بهجت ـ مسرور ومقرور ص ٦٥ .

وبعـــــد :

فهذا عرض وتحليل ودراســة وموازنة للعمل الفنى الذى كتبــه الكاتب/ أحمد بهجت تحت عنوان ــ « مسرور ومقرور ــ لا رواية تبدأ أحداثها بعــد الموت » قدم له صاحبه بمقدمة واعتراف وضــح فيهما السر فى اطلاقه مصطلح « لا رواية » على عمله ، وعلل ذلــك بأمرين :

أحدهما : أن الرواية تبدأ بالحياة وتنتهى بالموت ، وهــذا العمل يبدأ بالموت وينتهى بالبعث وتستمر أحــداثه حتى نقف وراء أبواب الجنــة والنــار .

والثانى : ان أحداث العمل حقيقة ، لكنها لم تقــع بعــد ، لكنها وقعت بالتأكيد أو ستقع بالتأكيد ، وتلك هى الحقيقــة على الرغم من غرابتها . والأسماء خيالية .

وقد ناقشناه فى هــذا المصطلح ، ولم نوافقه فيما ذهب اليه فى تعليله الأول ، وتكونت لدينا قناعة بدليله الثانى الذى علل به ، وهو كون الأحداث حقيقية .. الخ وذلك لكى يبرىء نفسه من أن يتهــم بأنه جعل حقيقة الموت والبعث خيــالاً .

★ وأوضحنا رؤية الكاتب لحقيقة الدنيا والآخرة وسبب صياغته لهــا فى عمل فنى .

كما اعترف الكاتب فى المقدمة بأنه مقلد لكتاب التوهم للمحاسبى الأمر الذى جعلنا نعرض أحداث مسرور ومقرور ، ونعرض كتــــاب التوهم ونوازن بينهما لنقف على دور الكتاب فى اثارة الملكة الابداعية عنــد الكاتب ، ومدى تأثره فى عمله الفنى ، والأشياء التى اتفق فيها

الكاتب مع شيخه المحاسبى فى كتابه التوهم والتى خالفه فيها وتعليله كل ذلك •

★ عددنا هـذا العمل من الأدب الاسلامى الذى يتناول قضـايا الحياة ومظاهرها ومشاكلها وفق التصور الاسلامى ، وكانت القضـية التى طرحها المؤلف فى عمله هذا هى علاقة الحاكم بالمحكوم فى الدنيا، والجزاء المترتب على طبيعة هـذه العلاقة فى الآخرة •

كما ناقش دور المحكومين فى اصلاح الحاكم ، والحياة عموما ، ودور بطانة السوء من الحاشية فى افساد الحاكم •

★ والبطل فى « مسرور ومقرور » شخصيتان كل منهما تجسـد معنى يخالف الآخر : فمسرور يجسد الظلم والطغيان ••• الخ الصفات السيئة ، ومقرور يجسد الايمان واليقين ••• الخ الصـفات الحسنة وفق مبادىء الاسلام ، وكان لكل من الشخصيتين من معنى اسـمه نصيب وهما يرمزان للخير والشر على مر العصور والدهور •

وفى العمل شخصيات ثانوية هى السلطة التنفيـذية الممثلة فى الوزير وكبير البصاصين ورئيس العسس ، والجـلاد والحـارس ، والسلطة القضائية الممثلة فى قاضى القضاة وانطلاقا من ايمان الكاتب بالاسلام ورموزه ، فقـد أنطق قاضى القاضى بكلمة الحق فى وجه السلطان الجائر وكان أن فقـد حياته بسببها ، لكنـه كسب آخـرته ، بينما ظل رموز السلطة التنفيذية فى غيهم وضـلالهم حتى لاقـوا مصيرهم المحتوم ، وبئس المصير •

أسهمت اللغة بدور بارز فى رسم الشخصيات من الداخل والخارج بل وعبرت عن طبيعة عمل كل شخصية •

استعان الكاتب بلغـــة القرآن الكريم والسنة النبوية وأفاد منها فى التعبير عن المواقف والمشاهد والأحداث التى تتعلق بالحياة الأخرى ، التى تبدأ بالموت وتنتهى بالجنة للسعداء ، والنار للأشقياء والتى قال القرآن الكريم والسنة النبوية الكلمة الأولى والأخيرة فيها • كما أسهمت هـــذه اللغة فى توصيل المعانى الى كل المتلقين كما فعلت وتفعل وستظل تفعل ان شاء الله لغـــة القرآن الكريم مع القساة والجاحدين والمنكرين والحدين سابقا ولاحقا • كما استعان الكاتب بلغـــة العصر الحـــديث والتكنولوجيا الحديثة فى تقديب المعنى الى المشتغلين بهذه العلوم • كما ظهرت اللغة الصحفية فى ثنـــايا هـــذا العمل ، لأنه كان ينشر فى جريدة يومية تخاطب كل فئات الأمة •

★ يذكر للكاتب أنه أول من أطلق مصطلح « لا رواية » فيما أعلم ـــ وطرق موضوعا يتعلق بالحياة الآخرة فى عمل فنى ، وسلم من الوقوع فى أخطاء تمس العقيدة وتحسب عليـــه •

نسأل الله لنا وله السلامة من كل اثم ، والغنيمة من كل بر ، وأن يرزقنا جميعا رضـــاه •

« وآخـــر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين »

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

د• داود لطفـــى حـــافظ
مدرس الأدب والنقـــد فى كلية اللغة العربية بأسيوط